سيكولوجية الجماهير

غوستاف لوبن

ديـوان العـرب للنشـر والتـوزيع

عنـــوان الكتاب: سيكولوجية الجماهير
اســـم المـؤلف: غوستاف لوبن
ترجمة: عادل زعيتر
التصنيف الأدبي: علم نفس اجتماعي

رقم الإيـــداع: 11835 / 2024

الترقيـم الدولي: 2 - 937 - 998 - 977 – 978

التدقيـق اللغوي: محمد وجـيـه
تـصـميـم الغلاف: منى الموجـي
التنسيق الداخلي: محمد وجـيـه
رقـــم الطـبـعـة: الطبعة الأولـى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد
تليفون: 00201030502390
dewanalarabegypt@gmail.com

سيكولوجية الجماهير

غوستاف لوبن

ترجمة: عادل زعيتر

ديوان العرب للنشر والتوزيع

الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الأول الخصائص العامة للجماعات

سنة وحدتها النفسية

من أي شيء تتألف الجماعة نفسيًا- لا يكفي اجتماع أشخاص كثيرين لتأليف جماعة- الصفات الخاصة للجماعات النفسية- اتجاه أفكار الأفراد الذين تتألف الجماعات منهم ومشاعر هؤلاء الأفراد وتلاشي شخصيتهم- يسيطر اللاشعور على الجماعة في كل وقت- انزواء الحياة الدماغية وهيمنة الحياة النخاعية- انحطاط الذكاء وتحول المشاعر تحولًا تامًا- قد تكون المشاعر المتحولة أحسن من مشاعر الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة أو أسوأ منها- يسهل أن تكون الجماعة باسلة كما يسهل أن تكون مجرمة.

تدل كلمة الجماعة في معناها العادي على اجتماع أشخاص مهما كاموا ومن أي الجنسين كانوا، ومهما كانت قوميتهم ومهنتهم، ومهما كانت المصادفة التي جمعتهم.

والجمعة تدل على معنى آخر من الناحية النفسية، ففي بعض الأحوال المعينَّة، وفي هذه الأحوال فقط، يكتسب لفيف من الناس صفاتٍ جديدةً مختلفة أشد الاختلاف عن صفات كل فرد من هذا اللفيف، فتتلاشى الشخصية الشاعرة وتتجه أفكار كل واحد من أولئك الأفراد نحو صوب واحد، وتتألف روح مشتركة مؤقتى لا ريب، ولكنها ذات صفات واضحة للغاية، وهنالك

يصير الجمع ما أسميه بالجماعة المنظمة، وإن شئت فقل الجماعة النفسية، لما لا أجد خيرًا من هذا التعبير، وتكون تلك الجماعة ذات كيان واحد وتخضع لنسة الوحدة النفسية للجماعات.

وإذا ما حدث أن وجد أفراد بعضهم بجانب بعض عرضًا فإن هذا لا يمنحهم صفات الجماعة المنظمة، ولو اجتمع ألف شخص بعضهم بعضًا في ميدان عام بطريق المصادفة من غير هدف معين ما ألفوا جماعة نفسية قط، وهم لكي يكتسبوا صفات الجماعة النفسية، لا بد أن تؤثر فيهم بعض المحرضات التي سنعين طبيعتها.

ولا يتضمن اضمحلال الذات الشاعرة واتجاه المشاعر والأفكار نحو هدف واحد، وهما الصفتان الأوليان للجماعة التي هي في طريق الانتظام، وجود أفرادٍ كثيرين في مكان واحد علة الدوام، فقد يكتسب ذات حين ألوفٌ من الأشخاص المتفرقين صفات الجماعة النفسية بفعل بعض المهيجات العنيفة كحادث قومي جلل، ويكفي أن تجمع هؤلاء أية مصادفة ليصطبغ سلوكهم بصبغة أعمال الجماعات فورًا، ومن الممكن في بعض ساعات التاريخ أن يتألف من بضعة أشخاص جماعة نفسية على حين لا يتألف من مئات الأشخاص الذين يجتمعون اتفاقًا مثل تلك الجماعة، وقد تتقلب الأمة كلها أحيانًا إلى جماعة بفعل هذا المؤثر أو ذاك من غير أن يكون اجتماع ظاهر هنالك.

والجماعة النفسية متى تكونت اكتسبت صفات عامة مؤقتة يمكن تعيينها، وإلى هذه الصفات العامة تضاف صفات خاصة تختلف باختلاف العناصر التي تتألف الجماعة منها والتي يمكنها أن تغير كيانها النفسي.

إذن يمكن تقسيم الجماعات النفسية، وتدلنا دراسة هذا التقسيم على أن الجماعة المتباينة من عناصر مختلفة تكون، هي والجماعات المتجانسة المؤلفة من عناصر متشابهة بعض الشبه (كالفرق والطوائف والطبقات)، ذات صفات مشتركة بينها وأنه يكون بجانب هذه الصفات المشتركة خصوصيات تختلف بها هذه الجماعة عن تلك.

ولندرس الصفات المشتركة بين جميع الجماعات قبل أن نعني بأنواع الجماعات، وسيكون شأننا في ذلك كشأن العالم الطبيعي فنبدأ بتحديد الصفات العامة بين أفراد الفصيلة الواحدة، ثم نعين الصفات الخاصة التي تفرق بين ما في هذه الفصيلة من الأنواع والأجناس.

ليس من السهل وصف روح الجماعات، وذلك لأن نظام هذه الروح لا يختلف باختلاف الشعوب وتركيب الزمر فقط، بل يختلف أيضًا باختلاف طبيعة ما تعانيه من المحرضات ودرجة هذه المحرضات، وصعوبة مثل هذه تبدو مع ذلك في درس حال أي فرد درسًا نفسيًا، فالأشخاص، وإن كانوا يظهرون في الروايات ذوي خلق ثابت، ليسوا كذلك في ميدان الحياة الخاصة، ونمطية البيئات وحدها هي التي تحدث نمطية الأخلاق ظاهرًا، وقد بينت في موضوع آخر أن جميع الأمزجة النفسية تشتمل على ممكنات خلقية

يمكن أن تبدو بفعل انقلاب مفاجئ في البيئة، ومن ذلك أن بدا بين وحوش العهد أناس من أبناء الطبقة الوسطى كانوا في الأحوال العادية كتاب عدل مسالمين أو قضاة صالحين، فلما هدأت الزوبعة عاد هؤلاء إلى سابق أخلاقهم فوجد نابليون بينهم أشد أعوانه خضوعًا.

وإذ أننا لا نستطيع أن ندرس هنا جيمع المراحل في تكوين الجماعات فإننا ننظر إلى وجه نظامها الكامل على الخصوص، وهكذا نرى ماا يمكن الجماعات أن تكون، لا ما هي عليه في كل وقت، وتتنضد على ذلك الوجه الراقي للجماعات بعض الصفات الجديدة الخاصة، كما على أساس الأمة الثابت المهيمن، فتوجه تلك الصفات الجديدة جميع مشاعر الجماعة وأفكارها نحو هدف واحد، وهنالك فقط تتجلى سنة الوحدة النفسية للجماعات التي ذكرتها آنفًا.

وكثير من الصفات النفسية مشتركة بين الجماعات والأفراد، ومن الصفات النفسية ما لا يوجد في غير الجماعات، وسندرس هذه الصفات الخاصة في بدء الأمر لبيان أهميتها.

إن أبرز أمر في الجماعة النفسية هو أن الأفراد الذين تتألف منهم، مهما كانوا ومهما تماثلوا أو اختلفوا في طراز حياتهم وأعمالهم وأخلاقهم وعقولهم، هو أنهم إذا ما تحولوا إلى جماعة منحتهم هذه الجماعة ضربًا من الروح الجامعة، وهذه الروح تجعلهم يشعرون ويفكرون ويسيرون على وجه يخالف ما يشعر به ويفكر فيه ويسير عليه كل واحد منهم وهو منفرد، ومن

الأفكار والمشاعر ما لا يظهر أو يتحول إلى أعمال متباينة ملتحمة لأجل، وهي كخليات الجسم الحي التي يتألف من اجتماعها موجود جديد ذو صفاتٍ تختلف عن صفات كل واحدة من هذه الخليات.

والأمر هو خلاف الرأي الذي يحار المرء من صدوره عن فيلسوف ثاقب البصيرة كهربرت سبنسر والقائل إن الجماعة مجموع وحاصل متوسط للعناصر التي تتألف منها، والأمر هو أن آية الجماعة تركيب وحدوث صفات جديدة كما في الكمياء حيث ترى أن بعض العناصر، كالقواعد والحوامض، إذا ما اختلط ببعض ظهر جسم جديد ذو خواص تختلف عن خواص الأجسام التي تألف منها.

ومن السهل ملاحظة درجة اختلاف الفرد في الجماعة عن الفرد وحيدًا، ولكن اكتشاف علل ذلك الاختلاف أقل سهولة.

وللوصول إلى تبين ذبك يجب أن تذكر قبل كل شيء الملاحظة الآتية التي وردت في علم النفس الحديث وهي: إن الحوادث اللاشعورية تمثل دورًا عظيمًا في أعمال الذكاء، لا في الحياة العضوية وحدها، ولا تمثل حياة النفس الشاعرة غير نصيب ضئيل بجانب حياتها اللاشاعرة، ولا يكتشف أدق المحللين وأعمق الباحثينسوى عدد قليل من العوامل اللاشعورية التي تسير النفس، وتشتق أعمالنا الشعورية من مصدر غير شعوري تألف من مؤثرات وراثية، ويشتمل هذا المصدر على ما لا يحصى من الرواسب الموروثة التي تتكون منها روح الشعب، ويوجد خلف ما هو معروف من علل

أعمالنا علل خفية نجهلها، وما معظم أفعالنا اليومية إلا نتيجة لعوامل مستترة لا ندركها.

وبفل العناصر اللاشاعرة التي يتكون منها روح الشعب يتشابه جميع أفراد هذا الشعب على الخصوص، وبفعل العناصر الشاعرة التي هي ثمرة التربية، ونتيجة وراثة استنثنائية على الخصوص، يختلف أولئك الأفراد، وتجد لأشد الناس اختلافًا بذكائهم غرائز وشهوات ومشاعر متماثلة في بعض الأحيان، ومن النادر أن يجاوز أفضل الناس مستوى العامة في كل ما يشأ عن المشاعر كالدين والسياسة والأخلاق والحب والبغضاء إلخ، أجل، قد تكون هنالك هوة بين رياضي مشهور وصانع حذائه من الناحية العقلية، غير أن الفرق بينهما يكون صفرًا في الغالب أو ضئيلًا إلى الغاية في الخلق والمعتقدات.

حقًا إن صفات الخلق العامة تلك التي يهيمن اللاشعور عليها والتي يحوزها معظم الشعب بدرجة واحدة تقريبًا هي الصفات التي تبدو شاملة لدى الجماعات، وفي الروح الجمعية تمحي أهليات الأفراد العقلية وشخصيتهم من حيث النتيجة، ويغرق المتباين في المتجانس وتسيطر الصفات اللاشعورية.

ويفسر لنا الصفات العادية ذلك السبب في أن الجماعات لا تستطيع أن تنجز أعمالًا تتطلب ذكاء عاليًا، وليست المقررات التي تصدر عن مجلس مؤلف من رجال ممتازين في موضوع المصلحة العامة بأرقى من المقررات

التي تصدر عن مجلس مؤلف من الأغبياء، وذلك لأن الفريقيين لا يشتركان في الحقيقة في غير تلك الصفات الهزيلة التي يتصف بها جميع الناس، والبله، لا الذكاء، هو ما تجمعه الجماعات، وليس جميع الناس بأحصف من فولتير كما يردَّد في الغالب والحق أن فولتير أحصف من جميع الناس إذا قصدت الجماعات من "جميع الناس".

ولكن الأفراد في الجماعة إذا ما اقتصروا على صهر صفاتهم العادية ظهرت صفة متوسطة فقط، لا صفات جديدة كما قلنا، فكيف تحدث هذه الصفات الجديدة؟ فلنبحث في ذلك الآن.

هنالك أسبابًا مختلفة تؤدي إلى ظهور صفات خاصة بالجماعات، والسبب الأول هو أن الفرد يكتسب في الجماعة بفعل العدد شعورًا بقدرة، لا تقهر، على الإذعان لغرائز كان يردعها كرهًا وهو منفرد، والفرد في الجماعة يذعن لتلك الغرائز طوعًا بنسبة زوال الشعور بالمسئوبلية الذي يرد جماع الأفراد على الدوام ما دامت الجماعة غفلًا، ومن ثم غير مسؤولة.

والسبب الثاني، وهو العدوى النفسية، يعمل أيضًا على إظهار صفات خاصة في الجماعات موجهة لها، والعدوى النفسية، وإن كانت حادثة تسهل ملاحظتها، لم تفسر بعد، وهي مما يجب ربطه بحوادث التنويم التي سندرسها عما قليل، وكل شعور في الجماعة وكل عمل تأتيه مما يسري بالعدوى، وهو يبلغ من السريان بالعدوى ما يسهل معه على الفرد أن يضحي بمصلحته

الشخصية في سبيل المصلحة الهامة، وفي ذلك استعداد مخالف لطبيعة الأفراد لا يقدر عليه الإنسان إلا إذا كان جزء من جماعة.

والسبب الثالث وهو أهم الأسباب، يوجب في أفراد الجماعة صفات خاصة تكون في بعض الأحيان مناقضة لصفات الإنسان وهو منفغرد، وأقصد بذلك قابلية الإنسان للتلقن التي ليست العدوى المذكورة آنفًا غير نتيجة لها.

ونحن، لكي ندرك هذه الحادثة، يجب أن نذكر بعض الاكتشافات الحديثة في علم وظائف الأعضاء، فمما نعلم اليوم أن الشخص يمكن وضعه في حال يفقد فيه ذاته الشاعرة فينقاد لتلقينات الفاعل الذي أفقده إياها، فيقترف أشد الأعمال مخالفة لسجيته وعاداته، وهنالك مشاهدات دقيقة تثبت، كما يظهر، أن الشخص إذا ما انغمر منذ حين في جماعة وهي تعمل لم يعتم أن يقع في حال خاصة كثيرة القرب من حال سحر المنوم بين يدي منومه، وذلك بفعل سيلانات تصدر عن الجماعة أو بفعل سبب آخر لا يزال مجهولًا، وحياة الدماغ إذا تعطل في المنوم يغدز المنوم عبدًا لجميع قواه اللاشاعارة فيوجه المنوم هذه القوى كما يشاء، والذات الشاعرة حين تغيب تبطل الإرادة ويزول التمييز، ووتوجه المشاعر والأفكار، إذ ذاك، إلى الهدف الذي عينه المنوم.

تلك هي حال الفرد في الجماعة تقريبًا، وفي الجماعة يعود الفرد غير شاعر بأفعاله، وعند ذلك الفرد، كما عند المنوم، فيما تزول بعض الملكات تشتد

ملكات آخرى اشتدادًا عظيمًا، فيندفع الفرد، بفعل التلقين في إنجاز بعض الأعمال صائلًا صولة لا يقدر على مقاومتها، وتكون الصولة أشد اندفاعًا في الجماعات مما في المنوم، وذلك لأن التلقين، إذ كان واحدًا لدى جميع الأفراد في الجماعات، يزيد بالتفاعل، وأفراد الجماعة الذين لديهم من قوة ما يقاومون به التلقين قليلون إلى الغاية ويجرهم السيل، وإنما الذي يستطيعون محاولته هو تحويل المجرى بتلقين مختلف، فهم إذا ما صدرت عنهم كلمة طيبة أثاروا خيالًا ملائمًا أمكنهم في بعض الأحيان أن يصرفوا الجماعات عن اقتراب أفظع الأفعال.

ومما تقدم ترى أن تلاشي الشاعرة وهيمنة الذات غير الشاعرة والتوجيه نحو غرض واحد بالتلقين وعدوى المشاعر والأفكار وتحويل الأفكار الملقنة إلى أعمال في الحال هي أهم صفات الفرد في الجماعة، وفي الجماعة لا يعود الفرد كا كان، بل يصبح آلة تعجز إرادته عن قيادتها.

والإنسان إذ ما غدا جزءًا من الجماعة هبط، إذن، عدة درجات في سلم الحضارة، والإنسان وهو منفرد قد يكون شخصًا مثقفًا، والإنسان وهو في الجماعة يكون غريزيًا ومن ثم يكون همجيًا فيتصف بما عند الفطريين من الغريزية والعتف والجلف كما يتصف بما عندهم من الحماسة والبطولة، وهو يشاابههم أيضًا بسهولة استهوائه بالصيغ والصور وسوقه إلى أعمال ضارة بأوضح مصالحه، والفرد في الجماعة كذرة التراب بين ذرات آخرى تثيرها الرياح كما تشتهي.

وهكذا ترى محلفين يصدرون أحكامًا يعيبها كل واحد منهم على انفراد. وهكذا ترى مجالس برلمانية تسن قوانين وتتخذ تدابير يرفضها كل عضو من أعضائها على حدة، وهكذا حال رجال مجلس العهد من أبناء الطبقة الوسطى ذوي العادات السليمة، فلما اجتمع الرجال، وتألفت منهم جماعة لم يترددوا، بتأثير بعض الزعماء، في إرسال أوضح الناس براءة إلى المقصلة وقد تنزل أولئك الرجال عن حصانتهم خلافًا لجميع مصالحهم فضرب بعضهم رقاب بعض.

ولا يختلف الفرد وهو في الجماعة عن شخصه المعتاد بالأعمال فقط والفرد، حتى قبل أن يفقد كل استقلاق فيه، تتحول أفكاره ومشاعره تحولًا ينقلب به البخيل إلى متلاف والملحد إلى معتقد والشريف إلى أثيم والنذل إلى بطل، ومن ذلك أن ينزل الأشراف عن جميع امتيازاتهم ساعة حماسةٍ في ا=ليلة **4** من أغسطس سنة **1789** الشهيرة، ومما لا مراء فيه أن كل واحد من أولئك الأشراف كان يرفض ذلك لو سئل على انفراد.

ومن الملاحظات الاسبقة نستنتج أن الجماعة على الدوام دون الشخص المنفرد إدراكًا، بيد أن الجماعة، من حيث المشاعر والأعمال التي توجبها هذه المشاعر، يمكنها أن تكون أكثر من الفرد خيرًا أو شرًا،وهذا يتوقف على الوجه الذي تلقن به، وهذا هو الذي غفل عنه الكتاب الذين لم يبحثوا في الجماعات إلا من الناحية الإجرامية، مع أن الجماعات، وإن كانت مجرمة في أوقات كثيرة، ذات بطولة في أوقات كثيرة آخرى، فالجماعات تسهل

قيادتها للتضحية انتصارًا لمعتقد أو مبدأ، والجماعات تثار حماستها في سبيل المجد والشرف، والجماعات تساق بلا خبز ولا سلاح كما حدث في الحروب الصليبية لإنقاذ قبر الرب، وكما حدث في سنة 1793للدفاع عن أرض الوطن، أجل، إن تلك البطولات غير شعورية إلى حد، غير أن التاريخ يصنع بمثلها، ولو وجب ألا يعد بين تراث الأمم غير الأعمال العظيمة التي حققت ببرودة ما سجلت حوليات العالم سوى اليسير من ذلك التراث.

الفصل الثاني مشاعر الجماعات وأخلاقها

(1) استعداد الجماعات للاندفاع والتقلب والغضب- الجماعة هي ألعوبة جميع المحرضات الخارجية وهي تردد صدى هذه المحرضات المستمر- ما تعانيه الجماعات من الاندفاعات هو من التجبر ما تزول معه المنفعة الشخصية- لا شيء في الجماعة يصدر عن التأمل- تأثير العرق.

(2) استعداد الجماعات للتلقن والتصديق- إذعانها للتلقين- تعد الجماعات من الحثقائق ما يلقي في روعها من الصور- كيف تكون هذه الصور متماثلة لدى جميع الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة- تساوي العالم والأبله في الجماعة- أمثلة مختلفة من الأوهام التي يكون أفراد الجماعة عرضة لها- تعذر الاعتماد على شهادة الجماعات- إجماع كثير من الشهود من أسوأ الأدلة على إثبات أمر- ضعف قيمة كتب التاريخ-

(3) غلو مشاعر الجماعات وبساطتها- الجماعات لا تعرف الشك ولا التردد، وهي تذهب إى التطرف على الدوام- الجماعات مفرطة في مشاعرها على الدوام-

(4) عدم تسامح الجماعات وتحكمها ومحافظتها- أسباب هذه المشاعر- نذالة الجماعات أمام السلطة القوية- لا تمنع الغرائز الثورية المؤقتة في

الجماعات من أن تكون هذه الجماعات محافظة إلى الغاية- الجماعات ذات غرائز معادية للتغيير والرقي-

(5) أخلاق الجماعات- أخلاق الجماعات قد تكون أحط من أخلاق أفرادها أو أعلى من هذه الأخاق بحسب التلقين- إيضاح وأمثلة- من النادر أن تكون المنفعة، التي هي المحرك الوحيد للشخص المنفرد، رائدًا للجماعات- شأن الجماعات في تهذيب الأخلاق.

لنبحث في الجماعات مفصلًا بعد أن بينا أوصافها مجملًا.

إن كثير من الصفات الخاصة بالجماعات، كالاندفاع والغضب وفرط المشاعر والعجز عن التعقل وعدم الحصافة وعدم روح النقد وما إلى ذلك، مما يمكن أن يشاهد أيضًا لدى الأفراد الذين لم يجاوزوا أدوار التطور السفلي كالمتوحش والطفل، وهذه مشابهة أكتفى بذكرها عابرًا لما في إثباتها من مجاوزة دائرة هذا الكتاب، وذلك إلى عدم فائدته للمطلعين على روح الفطريين، وعدم إقناعه من يجهلون تلك الروح.

والآن أبحث بالتتابع في مختلف الصفات التي تسهل مشاهدتها في معظم الجماعات.

استعداد الجماعات للاندفاع والتقلب والغضب

بحثنا في الصفات الأساسية للجماعة فقلنا إن الجماعة مسيرة باللاشعور وحدة تقريبًا، فالجماعة تسير بتأثير النخاع أكثر مما بتأثير الدماغ، نعم، إن ما تنجزه الجماعة من أعمال قد يكون كاملًا في تنفيذه، ولكن الدماغ إذ لم يكن موجهًا ليها يسير الفرد فيها تبعًا لمصادفات التحريض، والجماعة، وهي ألعوبة جميع المحرضات الخارجية، تردد صدى تقلب هذه المحرضات المستمر، والجماعة هي، إذن أمة ما يعتورها من الاندفاعات، وقد يقع الشخص وهو منفرد تحت تأثير المحرضات التي يخضع لها الإنسان وهو في الجماعة، غير أن عقله يدله على محاذير الإذعان لهذه المحرضات فلا يذعن لها، ويمكن تعريف هذه الظاهرة من الناحية الفيزيولوجية بأن يقال إن الشخص وهو منفرد يكون ذا استعداد للسيطرة على لاتنبهاته، على حين ترى الجماعة عاطلة من ذلك.

وقد تكون الاندفاعات المختلفة التي تخضع الجماعات لها كريمة أو جائزة وباسلة أو نذلة على حسب المحرضات، بيد أنها تبلغ، على الدوام، من التجبر ما تحي به أمامها منفعة الباقء نفسها.

وإذ كانت المحرضات التي تلقن الجماعات مختلفة، وإذ تنقاد الجماعات لهذه المحرضات على الدوام، كانت الجماعات متقلبة إلأى الغاية، فتراها تنتقل بغتة من التوحش الدامي إلى الكرم أو البطولة المطلقة، والجماعة يسهل عليها أن تكون جلادة كما يسهل عليها أن تكون شهيدة، ومن ضمن

الجماعة جرت سيول الدماء انتصارًا لكل معتقد، وليس علينا أن نرجع إلى عصور البطولة لنعلم ماذا تقدر عليه الجماعات، والجماعات لا تساوم بحياتها في فتنة أبدًا، فمنذ سنوات قليلة أصبح أحد القواد ذا حظوة لدى الشعب من فوره، فلو ود لوجد مئة ألف رجل مستعد للموت في سبيله.

إذن، لا رؤية في ما يصدر عن الجماعات، والجماعات يمكنها بفعل محرضات الزمن أن تجوب بالتتابع دائرة أشد المشاعر تباينًا، والجماعات تشابه أوراق الجشر التي تثيرها العاصفة وتفرقها في كل ناحية ثم تدعها تهبط، وبدراسة الجماعات الثورية يكون لدينا بعض الأمثلة على تقلب مشاعرها.

وتلقب الجماعات ذلك يجعل قيادتها أمرًا صعبًا إلى الغاية، ولا سيما عند قبضها على قسط من السلطات العامة، ولو لم تكن مقتضيات الحياة اليومية ناظمة خفية للحوادث ما عاشت الديمقراطيات قط لذلك السبب، غير أن الجماعات التي ترغب في الأمور متهورة لا ترغب في هذه الأمور لزمن طويل، فالجماعات تعجز عن الإرادة الدائمة عجزها عن التفكير.

وليست الجماعة مندفعة متلقبة فقط، بل هي كالهمجي أيضًا، ولا تسلم الجماعة بوجود حاجز بين رغبتها وبين تحقيق هذه الرغبة، وذلك لما تمن الكثرة عليها من الشعور بقدرة لا تقاوم، والحق أن مبدأ الاستحالة يزول لدى الفرد في الجماعة، وإذا كان الإنسان وهو منفرد يشعر بأنه لا يستطيع وحده أن يحرق قصرًا أو ينهب مخزنًا فإن مثل هذا العمل لا يدور في خلده،

وإذ كان الإنسان وهو في الجماعة يشعر بالقدرة التي يمنحها العدد فإنه ينقاد من فوره لأول تلقين بالقتل والسلب فيحطم العائق غير المنتظر بعنفٍ، ولو كان النظام البشري يحتمل دوام اغضب لأمكننا أن نقول إن الغضب هو الحال الطبيعية للجماعة.

وتتجلى أخلاق العرق الأساسية دومًا في غضب الجماعات واندفاعها وتقلبها كما في جميع المشاعر الشعبية التي سندرسها، ويتألف من أخلاق العرق أرضٌ تنبت عليها ماعرنا، والجمعات ذات غضب واندفاع لا ريب، ولكن على درجات مختلفة، ومن ذلك أن الفرق بارزٌ بين الجماعة اللاتينينة والجماعة الأنغلوسكسونية مثلًا، وتلقي حوادث تاريخنا الجددة نورًا شديدًا على هذا الأمر، ففي سنة **1870** كفى نشر برقية بسيطة مشتملة على ذكر إهانة مفترضة لحدوث انفجار غضب أسفر في الحال عن نشوب حرب طاحنة، ثم مضى بضع سنين فجاء في برقية نبأ انكسار تافه في لنغسن فأوجب ذلك سقوط الحكومة فجأة، ومما حدث في ذلك الحين أن أصيبت حملة إنكليزية بانكسار أكبر من ذلك أمام الخرطوم فلم يؤد ذلك إلى حين هيجان قليل في إنكلترا لم ينشأ عنه تغيير أي وزير، أجل، إن الجماعات شبيهة بالنساء في كل مكان، ولكن الجماعات اللاتينية أكثرها شبهًا بهن، فمن يعتمد على الجماعات اللاتينية يمكنه أن يرتقي سريعًا، ولكن مع قربه ابتمرار من صخرة تاربينيان ومع تيقنه بأنه سيقذف من فوقها ذات يوم.

استعداد الجماعات للتلقن والتصديق

قلنا إن فرط الاستعداد للتلقن هو من الصفات العامة في الجماعات، وبينا كيف أن التلقين أمر معدٍ في كل زمرة بشرية، وهذا يوضح اتجاه المشاعر الرسيع نحو غرض معين.

والجماعة مهما افترض حيادها بدت، في الغالب، في حال من الانتباه الانتظاري ما تلقن به، ويفرض التلقين الأول، المرسوم، على جميع الأدمغة في الحال فلم ينشب أن يعين الاتجاه، والفكر الثابت في الأشخاص الملقنين يميل إلى الانتقال إلى العمل، وسواء أكان الأمر قصرًا ليحرق أم عملًا كريمًا لينجز تبدو الجماعة مستعدة لصنع ذلك بسهولة واحدة، وكل ذلك يتوقف على طبيعة المحرض، لا، كما لدى الشخص المنفرد، على العلاقات بين العمل الملقن وحاصل العقل الذي يمكن أن يعارض تحقيق هذا العمل.

ثم إن الجماعة، وهي تحوم على الدوام فوق حدود اللاشعور وتعاني كل تلقينوتهتز بقوة المشاعر الخاصة بأشخاص عاجزين عن الاستعانة بالمؤثرات العقلية، لا يمكنها أن تبدو إلا مفرطة في سرعة تصديقها، وليس غير المحتمل أمرًا موجودًا لدى الجماعة، ويجب أن يذكر هذا لتدرك السهولة التي تولد وتنتشر بها أبعد الأساطير والأقاصيص عن الصواب.[1]

[1] إن الذين شهدوا حصار باريس شاهدوا أمثلة كثيرة على سرعة تصديق الجماعات لأمور غير محتملة تمامًا، ومن ذلك أن عدت شمعة مشعولة في الطبقة العليا في أحد المنازل إشارة للأعداء المحاصرين، مع أن قليلًا من إتنعام النظر كان يكفي لإثبات استحالة رؤية نور هذه الشمعة من مسافة عدة أميال.

وليس ابتداع الأقاصيص التي تدور بسهولة بين الجماعات نتيجة سرعة تصديق تام فقط، بل هو أيضًا نتيجة ما يعتور الحوادث من تشويه عظيم في خيال الأفراد المجتمعين، لوم تلبث الجماعة أن تمسح أبسط الحوادث، والجماعة تفكر بالأخيلة، وكل خيالٍ محضرٍ يستحضر طائفة من الخيالات لا ترتبط في الخيال الأول بأية رابطة، ومن اليسير أن تتمثل هذه الحال عند تأملنا في تعاقب الأفكار الغريب الذي يسوقنا إليه استدعاء أي أمر في بعض الأحيان، والعقل يدل على عدم ارتباط مثل تلك الصور، بيد أن الجماعة لا ترى ذلك، والجماعة تخلط بالحادثة ما يضيفه إليها خيالها المشوه، والجماعة، إذ تعجز عن التفريق بين الظاره والباطن، تذهب إلى أن ما في نفسها من صور محضرة أمر حقيقي، وهذه الصور مما لا يكون بينها وبين المشاهد سوى نسب بعيد في الغالب.

ويجب، كما يظهر، أن يكون التشويه الذي تصيب به الجماعة ما تشاهده من حادثة متنوعًا مختلف المعاني ما دام الأشخاص الذين تتألف منهم الجماعة ذوي أمزجة منوعة إلى الغاية، ولكن الواقع غير هذا، فضوب التشويه بفعل العدوى ذات طبيعة واحدة ومعنى واحد لدى جميع أفراد الجماعة، وبيان الأمر ومما لا ريب فيه أن القديس جورج لم يبد لغير واحد من الحضور قبل أن يظهر فوق أسوار القدس لجميع الصلبيين، ولم يعتم الجميع أن رضي بالمعجزة امشار إليها بفعل التلقين والعدوى.

ذلك هو أصل الهوسات الجمعيّة الكثيرة في التاريخ والتي يلوح أنها محفوظة بضروب الصحة المأثورة لأنها من الحوادث التي شاهدها ألوف الناس.

ولا تناقض نفسية الأفراد الذين تتألف الجماعة منهم ذلك المبدأ لما ليس لتلك الصفة من الأهمية، فالأفراد، إذا ما تألفت منهم جماعة تساوى الجاهل والعالم منهم في العجز عن الملاحظة.

وقد تبدو تلك القضية غريبة، ويجب لإثباتها ذكر عدد كبير من الحوادث التاريخية، ولا يكفي لهذا عدة مجلدات.

ومع ذلك لا أرغب في ترك القارئ أمام قضايا بلا دلي، فتراني، أذكر بضعة أمثلة أخذتها اتفاقًا من بين جميع ما يمكن الاستشهاد به من الأمثلة.

إن الحادث الآتي هو من أبرز الحوادث لاختياره من بين الهوسات الجمعية المشتدة على جماعة كانت مؤلفة من أفراد من كل نوع، أي كانت مشتملة على جهلاء وعلماء، وقد روى ذلك الحادث، اتفاقًا، بان السفينة جوليان فيليكس في كتابه عن مجاري البحر بعد أن نشره في المجلة العلمية.

كانت البارجة لابِل تطوف في البحر لتجد السفينة الحربية البيرسو التي فصلتها عاصفة شديدة، وكان نهارٌ، وكانت شمسٌ، ويشير الراصد بغتة إلى زورق نزعت صواريه وقلوعه، وينظر الملاحون إلى الناحية المشار إليها، ويبصر جميع الربانية والنواتي طوقًا مشحونًا بأناس وتجره زوارق ترسل إشارات الغوث، ويجهز أمير البحر ديفوسه زورقا ليخف إلى الغرق، ويرى ملاحو هذا الزورق وضباطه وهم يقتربون "جموعًا من الناس يضطربون

ويمدون أيديهم، ويسمع أولئك صوتًا مختلطًا يخرج من أناس كثيرين"، ولما وصل أولئك إلى الطوف وجدوا أنفسهم تجاه بضعة أغصان مغطاة بأوراق مقطوعة من الشاطئ القريب، فأمام هذه الحقيقة المحسوسة زال الهوس.

ويكشف هذا المثال بوضوح عن جهاز الهوس الجمعي كما بيناه، فمن جهةٍ ترى جماعة في حال انتباه انتظاري، ومن جهة أخرى ترى تلقينًا قام به الراصد وهو يشير إلى زورق إلى جميع الحضور من ربانية ونواتي.

وليس على الجماعة أن تكون كثيرة العدد لتضمحل فيها صفة رؤية الأشياء على الوجه الصحيح ولتقوم الهوسات مقام ما لا قرابة بينها وبينه من الحقائق، فإذا ما اجتمع بضعة أشخاص ألفوا جماعة، وهنالك يتسبون صفات الجماعات في الموضوعات الخارجة عن دائرة اختصاصهم ولو كانوا من فطاحل العلماء، وهنالك يزول ما عند كل واحد منهم من ملكة الملاحظة وروح النقد.

وقد أتانا العالم النفسي الأريب مسيو دافي بمثال طريف نشرته مجلة "حوليات العلوم النفسية" فنرى أنه خليق بأن نذكره في هذا الكتاب، وهو أن مسيو دافي عقد اجتماعًا من الباحثين الممتازين، وفيهم مستر والاس الذي هو من أبعد علماء إنجلترا صيتًا، فأجرى أمامهم جميع الظواهر استحضار الأزواج المأثورة كتجسيم الأرواح والكتابة على السبورة إلخ، وذلك بعد أن تركهم يفحصون الأدوات ويضعون الختم حيث يشاءون، فلما أخذ من هؤلاء الحضار المشهورين شهادات خطية قالوا فيها مؤكدين إن

الحوادث التي رأها مما لا ينال إلا بوسائل فوق قدرة البشر أبان لهم أنها نتيجة شعوذة بسيطة إلى الغاية، ومن قول راوي الحكاية: "إن الذي دعا إلى الدهش في بحث مسيو دافي ليس ما في حركاته نفسها من طرافة، بل فرط الضعف في الشهادات التي خطها شهودٌ لم ينفذوا السر، فالشهود يمكنهم، إذن، أن يرووا قصصًا مختلة كثيرة على أنها واقعية، مع أن النتجة هي أنه لو قبل وصفهم على أنه صحيح لتعذر إيضاح ما يصفونه من الحوادث بالشعوذة، وإن الطرق التي ابتدعها مسيو دافي هي من البساطة بحيث يحار المرء من إقدامه على استخدامها، غير أنه كان لمسيو دافي من السلطان على روح الجماعة، ما ساتطاع به أن يجعلها ترى ما لم تكن ترى"، ألا إن ذلك هو سلطان المنوم على المنوم، ولكنك إذا رأيت حكم هذا السلطان يسري على ذوي النفوس العالية التي حذرت مقدمًا أبصرت السهولة التي تهم بها الجماعات العادية.

والأمثلة التي هي من ذلك النوع لا تحصى، ومنها، أن الجرائد روت منذ بضع سنين قصة الطفلتين الغريقتين اللتين صار انتشالهما من نهر السين، فهاتان الابنتان قد عرفتا في بدء الأمر من قبل بضعة نفر من الشهود معرفة قاطعة، ولم يبق في نفس قاضي التحقيق أي شك في أمرهما تجاه شهادة أولئك الشهود المتطابقة المؤكدة فأصدر وثيقة بموتهما، وفيما أخذ الناس يدفنونهما عرف مصادفة أن الضحيتين لا تزالان من الأحياء، وأنه لم يكن بينهما وبين الغريقتين سوى شبه بعيد، والأمر هنا، كما في كثير

من الأمثلة المذكورة آنفًا، هو أن توكيد الشاهد الأول، الذي ذهب فريسة الوهم، كفا لتلقين الآخرين.

وفي أحوال مماثلة، كتلك بدء التلقين على الدوام وهما ناشئًافي شخص بمايذكره الشخص ذكرًا مبهمًا، ثم يسري هذا الوهم الأول بالعدوى الموكدة، فإذا كان المشاهد الأول سريع الانفعال كفاه أن تكون الجثة ذات سمة خاص، كندبة أو رقشة، لتوحي إليه بصورة شخص آخر، وذلك مع عدم وجود أي شبه آخر، وهنالك تغدو الصورة الموحى بها نواة تبلر مستحوذة على دائرة الإدراك معطلة لكل ملكة نقدٍ، ويعد الشيء الذي يراه المشاهد إذ ذاك غير الشيء نفسه، بل صورة مستحضرة في النفس، وعلى هذا الوجه تفسر المعارف المغلوط فيها هن جثث الأولاد من قبل أمهاتهم، كالحادث الآتي الذي وقع منذ زمن فيتجلى فيه وجها التلقين الذي ذكرت جهازه فيما تقدم:

"عرف الولد ولدٌ آخر معرفة خاطئة، فأدت هذه المعرفة إلى سلسلة من المعارف الخاطئة مثلها إذ ذاك.

وحدث أمرٌ غريبٌ إلى الغاية، فقئد عرف الولد في اليوم التالي تلميذ، فصرخت امرأة قائلة: رباه، إنه ولدي!

وتدخل الأم قريبًا إلى الجثة وتفحص ثيابها وترى ندبة على الجبين فتقول: هذا هو ولدي المسكين الذي فقد منذ يوليو (تموز) الأخير، لقد سرق مني، لقد قتل!

كانت تلك المرأة تعمل بوابة في شارع فور، وكان اسمها شفاندره، ويؤتي بسلفها فيقول: هذا هو فيليبر الصغير! ويعرف جميع سكان الشارع الولد فيليبر شفاندره، وذلك فضلًا عن معلمه الخاص في المدرسة الذي عدّ التميمة سمة.

وكان الجيران والسلف ومعلم المدرسة والأم على ضلال، فلما مرت ستة أسابيع عرفت حقيقة الولد، أي ظهر أنه من أهل بوردو وأنه قتل في بوردو فأتت به شركات النقل إلى باريس"[2].

ولنلاحظ أن تلك المعارف من عمل النساء والأولاد على العموم، أي من صنع اكثر الناس استعدادًا للتأثر، وهي تدل على ما يمكن أن يكون لمثل هذه الشهادات من القيمة أمام القضاء، وتوكيدات الأولاد على الخصوص هي تلك التي جب ألا يستشهد بها، ويكرر القضاة قولهم الشائع إن من يكون في تلك السن لا يكذب، فلو كانت لديهم ثقافة في علم النفس أو سع مما عليه لوجدوا أنه يكذب في تلك السن على الدوام تقريبًا، ويكون الكذب في هذه الحال غير أثم لا ريب، ولكنه لا يخرج عن أنه كذب، والأجدر أن يبني تجريم المتهم على أحد وجهي النقد، الطغراء والنقش، مما على شهادة صبي كما يصنع كثيرًا.

وإذا ما عدنا إلى مشاهدات الجماعات وجدناها أكثر المشاهدات هطأ، وأنها في الغالب وليدة وهم بسيط يعتور شخصيًا فيتلقنه الآخرون بالعدوى.

[2] انظر إلى عدد جريدة إكلير الصادر في 21 من إبريل سنة 1895.

وما لا يحصى من الوقائع يدل على ما يجب من الحذر التام تجاه شهادة الجماعات، فقد حضر ألوف الرجال حملة الفرسان الشهيرة في معركة سيدان، ويستحيل، مع ذلك، أن يعرف قائدها بسبب شهادات العيان المتناقضة، وقد أثبت القائد الإنكليزي ولسلي في كتاب حديث أن أفدح الأغاليط اقترفت حتى الآن حول أهم الواقئع في معركة واترلو على ما كان من تحقيق مئات الشهود لها[3].

وأقول مكررًا إن جميع هذه الأمثلة تدل على ضعف قيمة شهادة الجماعات، وتدخل رسائل المنطق إجماع عدد كبير من الشهود إلى فصل الأدلة التي هي أصح ما يكون في إثبات الأمر، غير أن ما نعرفه من روح الجماعات يدل على درجة تطرق الوهم إلى تلك الراسئل في ذلك، والحق أن أشد ما يشك فيخ من الحوادث هو ما يكون قد شاهدع أكبر عدد من الناس، والقول إن الحادث الواحد قد شاهده ألوف الشهود في وقت واحد يعني أن الحادث حقيقي يختلف اختلافًا كبيرًا عما اتفق عليه أولئك الشهود.

[3] أتعرف كيف حدثت واقعة واحدة بالضبط؟ إنني أشك في ذلك، أجل، قد نعرف من كان غاليًا ومن كان مغلوبًا، ولا نعرف أكثر من هذا على ما يحتمل، وما رواه مسيو داركور، وهو ممثل وشاهد، عن معركة سولفرينو يمكن تطبيقه على جميع المعاركط، فقد قال: "يدّون القادة تقريرهم الرسمية بعد أن يكون قد أنارهم مئات الشهود، ويعد الضباط الموكل إليهم تبليغ الأوامر تلك الوثائق ويكتبون صيغتها النهائية، ويجادل رئيس أركان حرب في هذه الصيغة ويعيد كتابتها ويعرض ذلك على القائد العام فيصيح هذا القائد قائلًا: "أنتم مخطئون حقًا خطأ مطلقًا"، فيستبدل بها صيغه الجديدة، وبذلك لايبقى شيء من التقرير الأصلي"، ويتخذ مسيو داركور دليلًا على استحالة تقرير الحقيقة في أكثر الحوادث تأثيرًا وأحسنها مشاهدة.

ومما تقدم يرى بوضوح وجوب عد كتب التاريخ كتبًا في خيال الصرف، فهذه هي مجموعة أقاصيص كيفية عن حوادث لم تشاهد جيدًا، فأضيفت إليها إيضاحات مختلفة بعد حين، ولو لم يترك لنا الماضي آثاره الأدبية والفنية والمعمارية ما عرفنا عنه شيئًا حقيقيًا، أفنعرف كلمة صحيحة واحدة عن حياة أعاظم الرجال الذين مثلوا شأنًا كبيرًا في البشرية كهركول وبدّهة (بوذا) وعيسى ومحمد[4]؟ كلّا، على ما يحتمل، وليست حياة هؤلاء مما نبالي به كثيرًا مع ذلك، فالذين أثروا في الجماعات هم الأبطال الأسطوريون، لا الأبطال الحقيقيون.

ومن دواعي الأسف أن تكون الأقاصيص عاطلة من أي ثبات، فخيال الجماعات يحلها تحويلًا مستمرًا بحسب الأزمنة، والأعراق على الخصوص، والفرق عظيم بين يهوه التوراة السفَّاح وإله المحبة: إله القديسة تيريز، ولا تجد وجه شبه بين بدَّهة المعبود في الصين وبدَّةة الذي يقدس له في الهند.

ولا ضرورة إلى مرور قرون على الأبطال حتى يحول خيال الجماعاتقصتهم، فقد يقع هذا التحويل في بضع سنين أحيانًا، ومما رأيناه في أيامنا أن قصة عظيم من عظماء التاريخ قد تحولت عدة مرات في أقل من خمسين سنة،

[4] إذا جاز مثل ذلك القول عن حياة صاحب دين غير السيد الرسول فإنه لا يشمل حياة السيد الرسول حتمًا، حتى إن المؤلف قد قال في كتابه "حضارات الهند" الجليل الذي وضعه سنة 1887 فنقلناه إلى العربية: "إذا استثنيت محمدًا لم تجدنا مطلعين على حياة مؤسس ديانة إطلاعًا صحيحًا على ما يحتمل"، وإلى مثل هذا ذهب المؤلف في كتابه الرائع "حياة الحقائق" الذي وضعه في سنة 1914 فنقلناه إلى العربية أيضًا، فيكون قول المؤلف في كتاب "روح الجماعات" الذي وضعه سنة 1895، أي بين ذينك الكتابين خطأ أو من قبيل الانسياق. (المترجم)

وبيان الأمر أن نابليون أصبح في عهد البوربون رجلًا راعيًا محبًّا للإنسانية كريمًا صديقًا للضعفاء فوجب على رأي الشعراء أن يحفظ هؤلاء الضعفاء ذكراه في أكواخهم زمنًا طويلًا، فلما انقضت ثلاثون سنة عد هذا البطل الحليم مستبدًا سفاحًا غاضبًا للسلطة والحرية مضحيًا بثلاثة ملايين من الرجال في سبيل طموحه فقط، واليوم تتحول هذه الأسطورة أيضًا، فإذا ما مضت بضعة عشرٍ من القرون غدا من المحتمل أن يشك علماء المستقبل في ظهور ذلك البطل تجاه هذه الأقاصيص المتناقضة، كما كما نشك أحيانًا في ظهور بدَّهة، فلا يرون فيه إلا رجلًا من رجال الأساطير أو صورة مجسمة لهركول، ومما لا ريب فيه أن أولئك العلماء يجدون في ذلك الشك ما يتسلون به لما يكون لديهم من اطلاع على روح الجماعات أكثر مما في الوقت الحاضر فيعرفون ن التاريخ لا يمكنه غير تخليد الأساطير.

غلو مشاعر الجماعات وبساطتها

لمشاعر الجماعة صفة البساطة وصفة الغلو، طيبة كانت تلك المشاعر أو سيئة، والفرد في الجماعة من هذه الناحية، كما في غيرها، يدنو من الفطريين، والفرد آنئذٍ، إذ يكون بعيدًا من التنوع، ينظر إلى الأمور جملة ولا يعرف الانتقال وفي الجماعة يشتد غلو المشاعر بالأمر القائل إن المشاعر إذ تنتشر سريعًا بالتلقين والعدوى يزيدها قوة ما يتفق لها من قبول.

وما في مشاعر الجماعات من بساطة وغلو فيصونها من الشك والتردد والجماعات تسلك طريق التطرف من فورها كالنساء، وما يساورها من ريب فلا يعتم أن ينقلب إلى بداهة قاطعة، وما يبقى راقدًا في الشخص وهو منفرد من نفور ولوم فلا يلبث أن يصير حقدًا ضاربًا لديه وهو في الجماعة.

وعنف المشاعر في الجماعات يزيد شدَّة في المتخالف منها على الخصوص لفقدان المسؤولية، ويعظم يقين الجماعة بعدم العقاب كلما زادت عددًا، وما توحي به الكثرة من سلطان مؤقت كبير فيجعل من الممكن أن تنال الجماعة مشاعر وأن تأتي أعمالًا تستحيل على الشخص المنفرد، وفي الجماعات يتحرر الغبيُّ والجاهل والحسود من الشعور بما تقوم القوة الجافية المؤقتة الواسعة مقامه من القصر والعجز.

وما في الجماعات من غلوّ فيتجلى مع الأسف في المشاعر الرديئة في الغالب، والمشاعر الرديئة هي بقية غرائز الإنسان الابتدائي الموروثة التي يحمل على زجرها خوف الإنسان المنفرد المسؤول من العقاب، وبهذا تفسَّر سهولة اقتراف الجماعات لأسوأ أعمال العنف.

والجماعات إذا ما لقنت بمهارة غدت قادرة على البطولة والإخلاص والجماعات أقدر على ذلك من الشخص وهو منفرد، وسيتاح لنا الرجوع إلى هذه الناحية عندما ندرس أخلاق الجماعات عما قليل.

والجماعة إذ كانت لا تتأثر سوى بالمشاعر المتطرفة وجب على الخطيب الذي يود إغواءها أن يفرط في التوكيدات العنيفة، وإن المبالغة والتوكيد والتكرار

وعدم محاولة الدليل العقلي وسائل برهنة مألوفة لدى خطباء الاجتماعات الشعبية.

والجماعة تطالب بغلوّ في مشاعر أبطالها أيضًا، فيجب أن يغرق في مبالغة صفاتهم وفضائلهم على الدوام، وفي المسرح تطلب الجماعة من بطل الرواية ما لا يزاول في الحياة أبدًا من الفضائل والشجاعة والأخلاق.

ومن الصواب أن حدّث عن بصريات خاصة بالمسرح، ولا ريب في وجودها، بيد أن لا صلة بين قواعدها وبين المنطق والذوق السليم في الغالب، ولا ريب في أن فن المخاطبة هو من طراز منحط، بيد أنه يتطلب أهليات من نوع خاص، وأحيانًا يحار في تقدير نجاح بعض الروايات عند قراءتها، وعمومًا يكون مديرو المسارح أنفسهم مترددين في أر نجاحها عندما يتسلمونها لما يتطلبه حكمهم في ذلك من تحولهم إلى جماعة5، ولو أتيح لنا التوسع في الموضوع لسهل علينا أن نثبت به أيضًا تأثير العرق العظيم، وذلك لأن الرواية التي تثير حماسة جماعةٍ في بلد تظل في بعض الأحيان غير ذات نصيب من النجاح في بلد آخر أو أنها لا تنال فيه غير نجاح إكرامي أو

[5] ذلك ما ندرك به السبب في أن بعض الروايات التي يرفضها جميع مديري المسرح تنال نجاحًا إذا ما قيّض لها أن تمثل اتفاقًا، وليس بمجهول أمر نجاح رواية " في سبيل التاج" التي وضعها مسيو كوبه فرفضها مديرو المسارح الأولى لمدة عشر سنين مع ما لمؤلفها من الشهرة، ومن ذلك، أيضًا، أمر رواية "عرابة شارلي" التي مثلت على نفقة صراف فأتيح لها، بعد أن رفضت عدة مرات، ان تشخص مئتي في فرنسا، وأكثر من ألف مرة في إنكلترا، فلولا إيضاحنا السابق فيما عليه مديرو المسرح من عدم التحول النفسي لإلى جماعة لتعذر علينا أن نتبين علة صدور مثل تلك الأضاليل عن أشخاص متخصصين يهمهم كثيرًا ألا يقترفوا أغاليط كتلك.

اصطلاحي، وذلك لما ليس فيها من عوامل قادرة على تحريك الجمهور الجديد.

ولا احتياج إلى أن نضيف إلى ما تقدم قولنا إن غلو الجماعات يتجلى في المشاعر، لا في العقل، والشخص إذا ما كان في الجماعة انحط مستواه العقلي إلى أبعد حد كما بينت ذلك آنفًا، ومثل ذلك ما حقَّقه مسيو تارد حينما بحث في جرائم الجماعات، ولذا كان صعود الجماعات عاليًا أو هبوطها سافلًا في دائرة المشاعر فقط.

عدم تسامح الجماعات وتحكمها ومحافظتها

بما أن الجماعات لا تعرف غير المشاعر البسيطة المتطرفة فإنها ترضى بما تتلقنه من الآراء والأفكار والمعتقدات أو ترفضه دفعة واحدة، وهي تعده حقائق مطلقة أو أغاليط مطلقة، وهذا هو أمر المعتقدات التي هي وليدة التلقين لا التعقل، وكل يعلم عدم التسامح المعتقدات الدينية ودرجة ما لها من السلطان المطلق على النفوس.

وإذ ليس لدى الجماعة شك فيما تعتقده صوابًا أو خطأً، وإذ تشعر الجماعة بقوتها من ناحية آخرى، فإنها تكون متحكمة غير متسامحة، والجماعة لا تطيق الخلاف والجدل أبدًا مع احتمال الفرد لهما، وأقل مخالفة في الاجتماعات العامة تصدر عن الخطيب تقابل بأصوات الغضب وأعنف الشتائم، فإذا أصرّ الخطيب قليلًا على موقفه ضرب وطرد، وما أكثر ما يكون القتل نصيب المخالف لولا وجود رجال الشرطة المزعج.

والتحكم وعدم التسامح أمران عامّان في جميع الجماعات، ولكن على درجات مختلفة، وهنا يتجلى مبدأ العرق المهيمن على مشاعر الناس وأفكارهم، والتحكم وعدم التسامح خلقان ناميان في الأمم اللاتينية على الخصوص، وهما يبلغان في هذه الأمم من الشدة ما يقوضان به مشاعر الاستقلال الشخصيّ القوية كثيرًا لدى الأنغلوسكسون، ولا تعبأ الجماعات اللاتينية إلا بالاستقلال الجمعي لطائفتها، وظاهرة هذا الاستقلال هي الاحتياج إلى إخضاع المخالفين لمعتقدات هذه الجماعات بعنف في الحال، ولم يستطع اليعاقبة في كل جيل منذ دور محاكم التفتيش أن يرتقوا لدى الأمم اللاتينية إلى مبدأ في الحرية غير ذلك.

والتحكم وعدم التسامح من أوضح المشاعر في الجماعات، والجماعات تتمثلهما وترضاهما بسهولة عند فرضهما، والجماعات تحترم القوة ولا تتأثر بالصلاح إلا قليلًا لعدَّها الصلاح وجهًا من وجوه الضعف، والجماعات لا تميل بقلبها إلى ذوي الحلم من السادة، بل إلى الطُّغاة الذين يهيمنون عليها بشدة، ولهؤلاء تقيم الجماعات أعلى التماثيل على الدوام، وإذا كانت الجماعات تدوس أحد المستبدين الذين سقطوا فلأن هذا المستبد فقدفقد سلطانه فدخل زمرة الضعفاء الذي يزدرون فلا يخشون، ومثال البطل العزيز على الجماعاتهو من يكون على نمط قيصر، فهو يبهرهم بريش تاجه ويسيخرهم لسلطانه ويخيفهم بسيفه.

والجماعة، وهي مستعدة للانقضاض على السلطة الضعيفة في كل وقت، تركع بدناءة أمام السلطة القوية، وإذا كان عمل السلطة متقطعًافإن الجماعة تنتقل بالتناوب من الفوضى إلى الخضوع ومن الخضوع إلى الفوضى لما تعلم من تطرف مشاعرها دومًا.

ومن جهل روح الجماعات أن تعتقد سيطرة الغرائز الثورية عليها، والوهم في ذلك يتطرق إلينا من اندفاعاتها، وما يصدر عنها من عصيانٍ وتخريب فهو مؤقت على الدوام، واللاشعور يهيمن على الجماعات، ومن ثم تخضع الجماعات لعامل الوراثة المتأصل فتبدو محافظة إلى الغاية، والجماعات إذا ما تركت وشأنها بدت تعبة من الفوضى فسارت بغريزتها نحو العبودية، من ذلك أشد اليعاقبة غطرسة واستعصاء هتفوا بحرارة لبونابارت حينما قضى على جميع الحريات وكشر عن أنيابه.

ويظل تاريخ الثورات الشعبية غير مدرك تقريبًا إذا جهل عمق ما في الجماعات من غرائز المحافظة، أجل، ترغب الجماعات في تغيير أسماء نظمها فتقوم بأعنف الثورات للوصول إلى هذا التغيير، غير أن أساس هذه النظم هو عنوان احتياجات العرق الموروثة فتعود هذه النظم إلى ذلك الأساس على الدوام، ولا يتناول تقلب الجماعات المستمر سوى الأمور السطحية، والجماعات هي في الحقيقة ذات غرائز محافظةٍ متأصلة، والجماعات تحترم التقاليد احترامًا دينيًا كالفطريين، فتمقت، غير شاعرة، كلَّ تجدد مؤدٍّ إلى تغيير أحوال حياتها الحقيقية، ولو كان سلطان الديمقراطيات الحاضر

موجد#ا وقت اختراع الصناعات الميكانيكية والبخار والخطوط الحديدية لتعذر تحقيق هذه الاختراعات أو لكانت الثورات المكرَّرة ثمنًا لها، فمن حسن حظِّ تقدم الحضارة أن سلطان الجماعات لم يظهر إلا بعد أن تمت الاكتشافات العلمية والصناعية الكبيرة.

أخلاق الجماعات

إذا ما قصدنا بكلمة الأخلاق احترام بعض العقود الاجتماعية على الدوام وقمع انجفاعات الأثرة باستمرار كان من الواضح أن الجماعات هي من شدة الاندفاع والتقلب ما لا تتأثر معه بالأخلاق، ولكننا إذا أردنا بذلك ظهور بعض الصفات ظهورًا مؤقتًا كإنكار الذات والإخلاص والتنزه عن الغرض والتضحية بالنفس والميل إلى الإنصاف أمكننا أن نقول إن الجماعات أهل للإنصاف بأخلاق رفيعة إلى الغاية.

وعلماء النفس القليلون الذين بحثوا في الجماعات لم يدرسوا أمرها إلا من حيث أعمالها الإجرامية، وهم إذا أبصروا كثرة هذه الأعمال وجدوا الجماعات في مستوى منحط جدًا.

والجماعات تقوم بأعمال مصدقةٍ لما يذهب إليه أولئك العلماء لا ريب ولكن لماذا؟ ذلك لأن غرائز التوحش المخربة هي رواسب الأجيال الأولى الراقدة في أعماق نفس كل واحد منا. ومن الخطر أن يروي المرء وهو منفرد غليل تلك الغرائز على حين يمنحع استغراق جماعةٍ غير مسؤولة وأمنه من العقاب بذلك كل حرية في إتباع تلك الغرائز، ونحن إذا لم نستطع أن

نمارس تلك الغرائز المخربة ضد أمثالنا فإننا نقتصر في إروائنا لها بممارستها ضد الحيوانات، فمن مصدرٍ واحدٍ يشتق الكلف بالصيد وضراء الجماعات، والجماعة حين تهشم إحدى الضحايا العزل تدل على أنها ذات قسوة بالغة النذالة، بيد أن الفيلسوف يرى في ذلك قرابة وثيقة بين تلك الجماعة والصيادين الذين يجتمعون زمرًا زمرًا ليتلذذوا بمشاهدة وعل تمزقه كلابهم.

وإذا كانت الجماعة قادرة على القتل والحرق وكل نوع من الجرائم فإنها أهل أيضًا للإتيان بأعمال التضحية والتنزه عن الغرض التي هي أسنى كثيرًا مما يمكت الشخص أن يصنعه منها وهو منفرد، والشخص في الجماعة على الخصوص هو الذي يطالب بالسير، وذلك باستدعاء مشاعر المجد والشرف والدين والوطن، ومن ينظر إلى التاريخ يجده مملوءًا بأمثلة للحروب الصليبية ومتطوعي سنة **1793**، والجماعات وحدها هي التي يصدر عنها أعظم ما يكون من الإخلاص والخلو من المآرب، وما أكثر الجماعات التي ضحت بنفسها باسلة في سبيل ما لا تكاد تفقه معناه من معتقدات ومبادئ، والجماعات تقوم بإضرابات إطاعة لأمر لدى الجملعات، على حين تبدو العامل الوحيد تقريبًا لدى الشخص وهو منفرد، وليست المنفهة الشخصية في الحقيقة هي التي سترت الجموع فيما يستعصي على ذكائها أن يدركه من الحروب التي لا تعد فدعت نفسها تسقط في ميدانها بسهولة كالقنابر التي تختلها مرآة الصياد.

حتى إن أحط الناس يكتسبون في بعض الأحيان مبادئ خلقية وثيقة إذا ما تألفت منهم جماعة، فمما لاحظه تاين أن قتلة (أيلول) سبتمبر وضعوا على منضدة اللجان الثورية ما وجدوه لدى ضحاياهم من المحافظ والحليّ مع أنه كان يسهل عليهم أن يخفوه، ولم تتناول الجماعة الصاخبة المتكاثرة البائسة، التي استولت على قصر التويلري في أثناء ثورة **1848**، شيئًا من الأدوات التي كانت تبهرها والتي كانت الواحدة منها تكفي لإعاشتها أيامًا كثيرة.

أجل، إن تهذيب الجماعة للفرد ليس قاعدة مطردة، بيد أن هذا التهذيب مما يشاهد بكثرة حتى في أحوال أقل خطورة من التي ذكرتها، ففي المسرح الذي ألمعت إليه آنفًا تطالب الجماعة بطل الرواية بأعلى الفضائل، ويبدو الحضور ذوي حشمة كبيرة في بعض الأحيان ولو كانوا من عناصر منحطةٍ، فيتذمر الشهوان المحترف والقوَّاد والخليع المدمن، في الغالب، إذا ما رأوا منظرًا منافيًا للحياء أو سمعوا قولًا طائشًا مما يغضبون عنه في محادثاتهم العادية.

ترى مما تقدم أن الجماعات إذا كانت تسير مع غرائزها المنحطة في الغالب فإنها تأتي أعمالًا خلقية عالية في بعض الأحيان، وإذا كان التنزه عن الغرض والتسليم والإخلاص المطلق لهدف وهمي أو حقيقي فضائل خلقية أمكننا أن نقول إنالجماعات تحوز هذه الفضائل أحيانًا إلى حد يندر ن ينتهي إليه أكثر الفلاسفة حكمة، ولا ضير في أن تكون ممارسة الجماعات لهذه

الفضائل أمرًا غير شعوري، فلو كانت الجماعات تتعقل في أكثر الأوقات فتنظر إلى الأمور من خلال مصالحها المباشرة ما تقدمت حضارة على وجه الأرض على ما يحتمل ولعطلت البشرية من التاريخ.

الفصل الثالث أفكار الجماعات وتعقلاتها وخيالها

أفكار الجماعات- الأفكار السسية والأفكار التابعة- كيف تجتمع الأفكار المتناقضة- ما يجب أن يعتور الأفكار العالية من التحول لتستمرئها الجماعات- شأن الأفكار الاجتماعي مستقل عما ينطوي عليه هذه الأفكار من الحقائق.

تعقل الجماعات- لا تتأثر الجماعات بالمعقولات- تعقل الجماعات منحط كثيرًا على الدوام- ما تشترك فيه الجماعات من الأفكار لا يتشابه ولا يتوارد إلا في الظاهر.

خيال الجماعات- قوة خيال الجماعات- تفكر الجماعات بالخيالات، وتتوارد هذه الخيالات بغير رابطة- ناحية الأمور الباهرة هي التي تبهر الجماعات على الخصوص- الباهر والأسطوري هما ركنا الحضارات الحقيقيان- الخيال الشعبي كان أساس سلطان رجال السياسة على الدوام- كيف تبدو الأمور التي يمكنها أن تؤثر في خيال الجماعات.

أفكار الجماعات

درسنا في كتاب سابق شأن الأفكار في تطور الأمم فأثبتنا أن كل حضارة تشتق من أفكار أساسية قليلة يندر أن تتجدد، ومما عرضناه فيه كيفية استقرار هذه المبادئ في روح الجماعات ودرجة صعوبة نفوذها فيها وما

يتفق لها من القوة بعد أن تنفذها، ومما بيناه فيه أيضًا أن أعظم الاضطرابات التاريخية تشتق في الغالب من تحول تلك الأفكار.

وقد عالجنا هذا الموضوع بما فيه الكفاية فلا نعود إليه مقتصرين على بضع كلمات عن الأفكار التي تستمرئها الجماعات وعن الأوجه التي تتمثلها بها.

يمكن تقسيم تلك الأفكار إلى قسمين، فنضع في القسم الأول الأفكار العرضية العابرة التي هي وليدة مؤثرات الساعة الراهنة كالولوع بفرد أو بمذهب مثلًا، ونضع في القسم الثاني الأفكار الأساسية التي تمنُّ البيئة والوراثة والرأي عليها بثبات عظيم، كالأفكار الدينية فيما مضى والأفكار الديمقراطية والاجتماعية في الوقت الحاضر.

وقد تشبّه الأفكار الأساسية بمياه النهر التي تجري وئيدة في مجراه وتشبه الأفكار العضية بالأمواج الصغيرة المتحولة دومًا المضطربة على سطحه والتي تكون بادية أكثر من سير النهر نفسه مع عدم أهميتها الحقيقية.

وفي أيامنا تظهر الأفكار الأساسية العظيمة، التي عاش عليها أجدادنا، مضطربة مقدارًا فمقدارًا كماتظهر النظم التي تقوم عليها مزلزلة زلزلة عميقة، ويتألف في الزمن الحالي كثير من تلك الأفكار الصغيرة العضية التي تكلمت عنها منذ هنية، بيد أن القليل منها يكتسب نفوذًا عظيمًا كما يلوح.

ومهما تكن الأفكار التي تلقَّنتها الجماعات لا تكون مؤثرة إلا إذا اكتسبت شكلًا بسيطًا جدًا وتمثلت في نفسها على صورة خيالات، ولا تجد

أية رابطة تشابه منطقية أو أية رابطة توارِدٍ بين هذه الأفكار الخيالية، وبعض هذه الأفكار الخيالية قد يقوم مقام بعضٍ كزجاجات المصباح السحري التي يخرجها المشعوذ واحدةٍ بعد الآخرى من العلبة التي تكون منضدة فيها، ويمكن أن يرى في الجماعات إذن، تعاقب أشد الأفكار تناقضًا، وتكون الجماعات بحسب مصادفات الحين تحت تأثير أحد مختلف الأفكار المخزونة في ذهنها فتأتي أشد الأعمال تباينًا، وما تكون عليه الجماعات من فقدان روح النقد يحول دون شعورها بالمتناقضات.

وليس ذلك الأمر خاضعًا بالجماعات، بل يشاهد أيضًا لدى كثير من الأضخاص المنفردين، لا بين الفطريين وحدهم، بل عند جميع الذين يشابهون الفطريين وفق ناحية من روحهم كأشياع الإيمان الديني القوي مثلًا، ومن ذلك أنني شاهدت هذه الظاهرة لدى الهندوس المثقفين الذين تخرجوا في جامعاتنا الأوربية ونالوا جميع شهاداتنا، أي إنني وجدت طبقة من الأفكار الغريبة تنضدت، من غير إفسادٍ، على أساس ما لا قرابة بينها وبينه من أفكارهم الدينية أو الاجتماعية، فكلا الأفكار يبدو في موكب خطب الهندوس الخاص بحسب مصادفات الوقت، فيتجلى في الشخص نفسه أشد المتناقضات وضوحًا، وهذه المتناقضات هي في الظاهر أكثر مما في الحقيقة، وذلك لأن الأفكار الموروثة وحدها هي من القوة في الشخص المنفرد ما تغدو به عوامل سير حقيقية، والأعمال لا تكون متناقضة حينًا بعد حين، تناقضًا تامًا إلا إذا وجد الإنسان بين اندفاعات وراثية مختلفة

بفعل التوالد، ومما لا طائل تحته أن أطيل القول هنا عن هذه الظاهرات على ما لها من أهمية نفسية عظيمة، وما على المرء إلا أن يقضي عشر سنوات في السايحة والملاحظة ليدركها على ما رأى.

والأفكار إ لا تستمرئها الجماعات إلا بعد أن تلبس شكلًا بسيطًا إلى الغاية وجب أن تتغير تغيرًا تامًا في الغالب لتصبح شعبية، ونحن إذا رجعنا البصر إلى الأفكار الفلسفية أو العلمية التي هي على شيء من السمو رأينا عمق ما تقتضيه من التغير لتهبط من طبقة إلى طبقة حتى تبلغ مستوى الجامعات، وتلك التغيرات تتوقف، على الخصوص، على العرق الذي تنتسب إليه هذه الجماعات، غير أن تلك التغيرات تكون مقللة مبسطة على الدوام، ولو نظر إلى الأفكار من الناحية الاجتماعية ما وجدت لها سلسلة مراتب، أي لم يوجد منها ما هو أرقى من غيره، فالفكر بوصوله إلى الجماعات وقدرته على تحريكها يكون قد عطل من كل ما فيه رفعته وعظمته.

على أنه لا أهمية لقيمة الفكر المتسلسلة ونتائج الفكر وحده هي الجديرة بالاعتبار، فالحق أن الأفكار النصرانية في القرون الوسطى والأفكار الديمقراطية في القرن الأخير والأفكار الاجتماعية في الواقع الحاضر لم ترتقِ كثيرًا، ويمكن عدَّها هزيلة من الناحية الفلسفية، وشأنها كان، وسيكون عظيمًا مع ذلك، وستعد لزمنٍ طويل بين العوامل الجوهرية في قيادة الدول.

والفكر ما يعتوره من تغيرٍ تستمرئه الجماعات به، لا يغدو مؤثرًا إلا إذا نفذ دائرة اللاشعور وأصبح من المشاعر بطرق مختلفة سندرسها في فصل آخر، وهذا التحول طويل جدًا على العموم.

ولا تظن أن صواب الفكر يون ثابتًا بما يمكن أن ينشأ عنه حتى لدى ذوي النفوس المثيرة النيرة، وهذا يبدو عند النظر إلى أن أوضح الأدلة ذو تأثير ضئيل في معظم الناس، نعم، يمكن أن يعرف الأمر البديهي الساطع مستمع مثقف، غير أن هذا المستمع لا يعتَّم أن ينقاد غير شاعر لمبادئه الأصلية، فإذا مالقيته بعد بضعة أيان وجدته يسوق إليك مجددًا براهينه القديمة بصيغتها الأولى، فالواقع أنه خاضع لأفكار سابقة أصبحت مشاعر، وهه الأفكار هي التي تؤثر في عوامل أفعالنا وأقوالنا.

والفكر إذا ما انتهى بطرقٍ مختلفة إلى الرسوخ في روح الجماعات اكتسب قوةً لا تقاوم وأسفر عن سلسلة من النتائج، والأفكار الفلسفية التي نجمت عنها الثورة الفرنسية لم تتأصل في الروح الشعبية إلا بعد زمن طويل، وكلٌّ يعلم ما كان لها من قوة قاهرة عندما استقرت بها، وما كان من صولة شعبٍ بأسره في سبيل المساواة الاجتماعية وتحقيق الحقوق المجردة والحريات المثالية، فقد ضعضع جميع العروش وقلب العالم الغربي رأسًا على عقب، وفي عشرين سنة انقض بعض الشعوب على بعض وعرفت أوربا من المذابح ما يقاس بمابح جينكيز خان وتيمورلنك، وما كان ليبدو بأوضح من ذلك ما يسفر عنه ثوران الأفكار القادرة على تغيير اتجاه المشاعر.

وإذا كان استقرار الأفكار بروح الجماعات يتطلب زمنًا طويلًا فإن ما تتطلبه لتخرج منها ليس أقل طولًا من ذلك، ولذا ترى الجماعات تتأخر عن العلماء والفلاسفة عدة أجيال في ميان الأفكار، وجميع أقطاب السياسة يعلمون اليوم ما في الأفكار الأساسية المذكورة منذ هنيهة من الخطأ، غير أن هذه الأفكار لا تزال قوية إلى الغاية، فترى هؤلاء الأقطاب مظطرين إلى الحكم وفق مبادئ عادوا لا يؤمنون بصحتها.

تعقل الجماعات

لا يجري القول بأنه لا يؤثر في الجماعات بالمعقولات على إطلاقه، غير أن ما تتخذه الجماعات من البارهين وما تتأثر به منها يبدو من الناحية المنطقية من نوع هو من الانحطاط ما لا يطلق به تعبير المعقولات عليه إلا تجوزًا.

أجل، يقوم ما لدى الجماعات من تعقل منحط على تناديات كالمعقولات الرفيعة، بيد أنه ليس بين الأفكار المتنادية في الجماعات سوى روابط متشابهة أو متعاقبة في الظاهر، فتسلسل هذه الأفكار كتسلس أفكار الأسكيمي الذي يعلم بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب في الفم فيستنبط من ذلك أن الزجاج وهو جسم شفاف كذلك يجب أن يذوب في الفم أيضًا، أو كتسلسل أفكار الهمجي الذي يخيل إليه أنه يغدو شجاعًا إذا ما أقل قلب شجاع، أو كتسلسل أفكار الهمجي الذي يستغله رب العمل فيذهب إلى أن جميع أرباب العمل مستغلون.

وتقوم مميزات المنطق الجمعي على تناديات أمور متباينة ليس بينها سوى صلات ظاهرة، وعلى التعميم الفجائي لأحوال خاصة، وتناديات من هذا القبيل هي ما يوجبه في الجماعات خطباء يعرفون قيادتها، وهؤلاء الخطباء وحدهم هم الذين يؤثرون فيها، والجماعات لا تدرك سلسلة وثيقة من المعقولات،ولذا يمكن القول بأن الجماعات لا تتعقل، أو إن تعقلها لا يؤثر فيها بالمعقول،نعم، إن ضعف بعض الخطب التي لها تأثير عظيم في سامعيها يثير الحيرة أحيانًا عند قراءتها، ولكنه يغيب عن البال أن تلك الخطب وضعت لقيادة الجماعات، لا ليطالعها الفلاسفة، والخطيب إذا ما كان وثيق الاتصال بالجماعة علم كيف يحضر من الصور ما يفتنها به، والخطيب إذا ما وفق لذلك بلغ غايته، ولا يعدل مجلد من الخطب بضع جملٍ تغوي ما يجب إقناعه من النفوس.

ومما لا طائل تحته أن نضيف غلى ما تقدم قولنا إن عجز الجماعات عن التعقل الصحيح ينزع منها روح النقد، أي استعداد الخطأ من الصواب، أي صوغ حكم صحيح، وما ترضى به الجماعات من الأحكام فمفروضٌ غير مناقش فيه، والأفراد الذين لا يجاوزون مستوى الجماعات كثيرٌ، وتقوم السهولة التي تغدو بها بعض الآراء العامة، على الخصوص، على عجز معظم الناس عن أن يكون لهم آراء خاصة قائمة على تعقلاتهم الذاتية.

خيال الجماعات

خيال الجماعات التصوري ذو استعداد للتأثر العميق كجميع الموجودات التي لا أثر للتعقل فيها، وللصور التي يثيرها في روح الجماعات شخص أو حادث أو رزء من الآثر البعيد ما للأمور الواقعية، والجماعات تكون في حال النؤوم الذي يقف عقله لحين فتساور نفسه صورٌ شديدة للغاية فلا تعتم أن تبدد عند التأمل، والجماعات إذ تعجز عن التأمل والتعقل لا تعرف المستحيل، والواقع أن أكثر الأشياء استحالة أشدها وقفًا للنظر على العموم. من أجل تلك كان ما في الحوادث من النواحي الغربية والأسطورية أشد الأمور تأثيرًا في الجماعات، والغريب والأسطوري في الحقيقة هما دعامتها الحضارة الحقيقيقتان، وفي التاريخ مثل الظاهري دورًا أهم من الحقيقي على الدوام، وفي التاريخ يفوق الوهمي الحقيقي.

والجماعات إذ لم تقدر على التفكير بغير الخيالات، لايؤثر فيها إلا بالخيالات والخيالات وحدها هي التي ترهبها أو تغويها فتغدو عوامل سيرٍ فيها.

ولذلك كان للتمثيل الروائي الذي يبرز الخيال على وجهه السافر تأثيرٌ عظيم في كل حين، وكان للعامي الروماني من الخبز والمشاهد مثل السعادة الأعلى، ولم يتغير ذها المثل الأعلى مع الأجيال إلا قليلًا، ولاشيء يقف الخيال الشعبي أكثر من الرواية التمثيلية، فتعتري البهو روعة واحدة في آن واحد، وإذا كانت هذه الروعة لا تخرج إلى حيز العمل من فورها فلأن أكثر

الحضور عدم شعورٍ لا يجهل أنه ضحية الأوهام وأنه ضحك أو بكى بفعل مغامرات خيالية، ومما يحدث أحيانًا، مع ذلك، أن تكون المشاعر التي توحي بها الأخيلة من القوة ما تنتقل به إلى العمل كما يؤدي إليه التلقين عادً، ومما يروي في الغالب قصَّة ذلك المسرح الشعبي الفاجعيِّ الذي كان يضطره إلى حماية الممثل الذي مثل دور الخائن عند خروجه من المسرح إنقاذًا له من عنف الحضور الذين أغضبتهم جرائمه الخيالية، وهنالك أوضح الأدلة على حال الجماعات النفسية على مارأى، ولا سيما السهولة التي تلقن بها، فللوهمي من الأهمية ما للحقيقي تقريبًا، والجماعات تميل ميلًا واضحًا إلى عدم التفريق بينهما.

وعلى الخيال الشهبي قامت سلطة الفاتحين وقوة الدول، والجماعات تقاد بالتأثير فيها، وليست حوادث التاريخ العظيمة، كظهور البدَّهية (البوذية) والنصرانية والإسلام، والإصلاح الديني والثورة الفرنسية والغزو الاشتراكي المتوعد، إلا نتائج قريبة أو بعيدة للتأثير القوي في خيال الجماعات.

وكذلك عد أقطاب السياسة في جميع الأجيال والبدان، حتى أشدهم استبدادًا، دعامة سلطانهم في الخيال الشعبي، وهم لم يحاولوا الحكم بغيره قط، ومن قول نابليون في مجلس شورى الدولة: "لقد أنهيت حرب فاندا بانتحالي الكثبكة، واستوليت على مصر بانتحالي الإسلام، واستلمت قساوسة إيطاليا بانتحالي مبادئ البابوية، ولو ملكت شعبًا يهوديًا لأعدت هيكل سليمان"، ومن المحتمل أنه لم يظهر منذ الإسكندر وقيصر رجلًا

أعظم من نابليون إدراكًا لما يجب أن يؤثر به في خيال الجماعات، وبهر هذا الخيال كان هم نابليون الدائم، وهذا ما كان يفكر فيه في انتصاراته وخطبه وأحاديثه وجميع أفعاله، وهذا ما كان يفكر فيه وهو على سرير موته أيضًا.

وكيف يؤثر في خيال الجماعات؟ ذلك ما سنراه عما قليل، وإنما نقول الآن إن البراهين المعدة للتأثير في الذكاء والعقل عاجزة عن بلوغ تلك الغاية، وما كان أنطونيوس محتاجًا إلى علم بيان ليثير الشعب على قاتلي قيصر، بل قرأ الشعب وصية قيصر أراه جثته.

ويبدو كل شيء يقف خيال الجماعات على شكل صورة مؤثرة واضحة خيالية من الشوح اللاحقة، أو أنه لا يضاف إليها غير الأمور العجيبة كالإشارة إلى انتصال بالغ أو معجزة باهرة أو جرم كبير أو أمل عظيم، ويحسن أن تعرض الأمور دفعةً واحدة من غير أن يشار إلى تكوينها أبدًا، وليس مما يقف خيال الجماعات مئة جرم صغير أو مئة رزء صغير، على حين يؤثر فيه تأثيرًا بالغًا بجرم كبير أو بلاء عظيم، ولو كانت نتائج هاتين الظاهرتين أقل فتكًا من نتائج مئات الأرزاء مجتمعة، ومن ذلك أن الزكمة الوافدة الكبيرة (الأنفلونزا) أهلكت بباريس خمسة آلاف شخص في بضعة أسابيع فلم تقف خيال الشعب إلا قليلًا، وذلك لأنه لم يعرب عن هذه المصلحة ببعض الصور المنظورة في الحقيقة، بل أعرب عنها بإحصاءات أسبوعية، ولو حدث أن هلك في ميدان عام خمس مئة شخص في يوم واحد بفعل بليَّةٍ بيِّنةِ كسقوك برج إيفل مثلًا، وذلك بدلًا من تلك الآلاف

الحمسة، لاعترى الخيال أثر هائل، ومما حدث أن انقطعت أخبار إحدى بواخر الأطلنطي فافترض غرقها في سواء البحر فأثر ذلك في خيال الجماعات تأثيرًا عميقًا مدة ثمانية أيام، ومما دلت عليه الإحصاءات الرسمية في الحقيقة غرق نحو ألف مركب كبير في تلك السنة فلم تشغل الجماعات بالها ثانيةً بسبب هذه الرزايا التي هي في مجموعها أهم من رزية غرق تلك الباخرة، لو وقع، هلاك أرواحٍ وضياع أموالٍ.

إذن ليست الأمور نفسها هي التي تقف خيال الشعب، بل الوجه الذي تبدو به هذه الأمور، فعلى هذه الأمور أن تتكاثف، إذا قدرت بهذا على التعبير عما في نفس، فتحدث صورة مؤثرة تساور النفس وتملؤها، فمن يعرف فن التأثير في خيال الجماعات يعرف فن سياستها.

الفصل الرابع الأصبغة الدينية التي تصطبغ بها عقائد الجماعات

من أي شيء يتألف الشعور الديني- الشعور اليني مستقل عن عبادة الألوهية- مميزات الشعور الديني- قوة الاعتقادات التي تكسب شكلًا دينيًا- أمثلة مختلفة- الآلهة الشعبية لم تزل قط- الوجوه الجديدة التي تبعت بها- أصبغة الإلحاد الدينية- أهمية هذه المبادئ من الوجهة التاريخية- الإصلاح الديني ومذبحة سان بارتلمي والهول وجميع الحوادث المماثلة هي نتيجة المشاعر الدينية في الجماعات لا نتيجة إرادة أشخاص منفردين.

بيَّنا أن الجماعات لا تتعقل، وأنها تقبل الأفكار أو ترفضها جملة واحدة، وأنها لا تطيق الجدال ولا المناقضة، وأن التلقين إذ يؤثر فيها يستحوذ على قوة إدراكها فلا يلبث أن يتحول إلى عمل، وبينا أن الجماعات إذا مالقَّنت كما ينبغي استعدت للتضحية بنفسها في سبيل ما لقَّنته من مثل عالٍ، ثم بيَّنا أن الجماعات لا تعرف سوى المشاعر الشديدة المتطرفة، وأن الميل العاطفي لا ينشب أن ينقلب فيها إلى عبادة، وأن النفور لا يكاد يظهر فيها حتى يتحول إلى حقد، فهذه البيانات العامة تشعر بطبيعة عقائد الجماعات. ونحن إذا بحثنا عن كثبٍ في عقائد الجماعات، سواء في أدوار

الإيمان أم الانقلابات السياسية العظيمة كالتي حدثت في القرن السابق، وجدناها ذات شكل خاص لم نرَ خيرًا من تسميته بالشعور الديني.

ولهذا الشعور مميزات بسيطة جدًا، وهي: عبادة موجود افترض سموَّه وخشية ما يعزي إليه من القدرة، والانقياد الأعمى لأوامره، وتعذر الجدال في تعاليمه، والرغبة في نشر هذه التعاليم وعدُّ كل من يرفض اعتناقها عدوًّا، ويظلُّ ذلك الشعور الديني من جوهر واحد على الدوام، سواء أطبق على إيه خفيّ أم على صنم حجريّ أم على بطل أو فكر سياسي، وتجد في ذلك الشعور ما فوق الطبيعة وما هو معجزٌ على السواء، والجماعات تلبس مثل هذه القدرة الدينية ما يغريها على التعصب من صيغة سياسية أو زعيم منصور حينًا من الزمن.

ولا يكون متدينًا إلا إذا عبد إلهًا فقط، بل يصبح متدينًا أيضًا عندما يضع جميع منابع نفسه وجميع انقيادات إرادته وجميع إجاج تعصبه في خدمة قضية أو موجودٍ غدًا غاية المشاعر والأعمال وارئدها.

والتعصب وعدم التسامح يلازمان الشعور الديني ملازمة دائمة، ولا مناص منهما عند من يعتقدون حيازتهم سرّ السعادة الدنيوبة أو الأبدية، وتجد هاتين الصفتين في أفراد كل جماعة إذا ما أثارها معتقد ما، فكان يعاقبة الهول متدينين في الصميم كتدين كاثوليك محاكم التفتيش وكانت حماستهم الجائرة تشتق من المصدر نفسه.

وتتصف عقائد الجماعات بما يلازم الشعور الديني من الخضوع الأعمى والتعصب الشديد والإكراه في الدعوة، ويمكن أن يقال، إذن، إن جميع المعتقدات ذات صبغة دينية، وعند الجماعات إن البطل الي تصفق له هو إله في الحقيقة، وذلك هو أمر نابليون مدة خمس عشرة سنة، ولم يتفق لإله من العباد الخلص ما اتفق لنابليون، ولا ترى إلهًا استطاع أن يقود الرجال إلى الموت بسهولة كما استطاع، ولم يكن لآلهة الوثنية والنصرانية من السلطان المطلق على النفوس أكثر مما كان له.

ولم يقم مؤسسو المعتقدات الدينية أو السياسية هذه المعتقدات إلا بعد أن عرفوا أن يفرضوا على الجماعات مشاعر التعصب الديني التي يجدفيها الإنسان سعادته في العبادة والتي تحفزه إلى التضحية بحياته في سبيل معبوده، وهذا ما حدث في كل دور، ومن قول مسيو فوستل دو كولنج الصائب في كتابه الممتع عن بلاد الغول الرومانية إن سلطان الإمبراطورية الرومانية لم يدم بالقهر قط، بل دام بما كان يوحي به من الإعجاب الديني، "فليسفي تاريخ العالم مثال على دوام نظام تمقته الشعوب خمسة قرون.... وإلا لم نفسر كيف أن فرق الإمبراطورية الثلاثين استطاعت أن تكره مئة مليون من الناس على الطاعة"، وإذا ما أطاع المئة مليون هؤلاء غلأن عظمة روما كانت تتجسد في القيصر فيعبد بالإجماع كإله، فتجد له محاريب حتى في أحقر القرى، "ومما ساور نفوس أهل ذلك الزمن في جميع أرجاء الجمهورية دينٌ جديد كان القاياصرة أنفسهم آلهته، وقبل التاريخ

الميلادي ببضع سنين أقامت جميع بلاد الغول الممثلة بستين مدينة معبدًا مشتركًا للقيصر أغسطس قريبًا من مدينة ليون.... وكان كهنة هذا المعبد الذين انتخبوا في مجلس المدن الغولية أعيان بلادهم... ومن المستحيل أن تغزو جميع هذا إلى الخوف والنذالة، فالنذالة لا تكون في شعوب بأسرها، وإذا وجدت فلا تدوم ثلاثة قرون، وليس أفراد الحاشية هم الذين كانوا يعبدون القيصر، بل روما، وليست روما وحدها هي التي كانت تعبده، بل بلاد الغول وإسبانيا واليونان وآسيا أيضًا.

واليوم لا ترى لمعظم فاتحي النفوس هياكل أبدًا، ولكنك تجد لهم تماثيل أو صورًا، وما يتفق لهم من عبادةٍ لا يختلف كثيرًا عن عبادتهم في الماضي، ولا يدرك شيء من فلسفة التاريخ إلا بعد أن تنفذ هذه الناحية الأساسية من روح الجماعات، فمن لم يكن إلهًا لدى الجماعات فلا يكون شيئًا عندها.

ولا تقل إن هذه هي خرافات جيلٍ ماضٍ هزمها العقل نهائيًا، فالمشاعر لم تغلب قط في صراعها الأزليُّ ضدَّ العقل، أجل، إن الجماعات عات لا تطيق سماع ما كان قد هيمن عليها زمن طويل من أسماء الألوهية والدين، بيد أنها لم تقم في دور من التماثيل والهياكل بمقدار ما أقامته منذ قرن، وما كان الحركة الشعبية المعروفة بالبولانجية فيثبت مبلغ استعداد الغرائز الدينية للظهور ثانية، فلم يخلُ فندقٌ في قرية من صورة للبطل، وكانت تعزي إليه قدرة على معالجة ضروب الجور وجميع الشرور، وما كان ألوف

الرجال ليضنوا بحياتهم في سبيله، وما أعظم المقام الذي كان يحتله في التاريخ لو اتفق له من السَّجيَّة ما تدعم به أسطورته!

ومما لا طائل تحته أن نعيد القول بأنه لابد للجماعات من دين، ولا تستقر المعتقدات السياسية والإلهية والاجتماعية بالجماعات إلا باكتسابها شكلًا دينيًا على ادوام فتكون به في حمّى من الجدل، ولو أمكن حمل الجماعات على الإلحاد لاكتسب هذا الإلحاد ما في الشعور الديني من شدة التعصب، ولأضحي في وجوهه الظاهرة ضربًا من العبادة بسرعة، ولنا في تطور المذهب الوضعيّ الصغير مثالٌ طريف على ذلك، ويشابه هذا المذهب ذلك العدمي الذي روى العلامة دوستوفيسكي لنا قصته، فقد سطعت أنوار العقل على هذا العدميُّ ذات يوم فحطم صور الآلهة والقديسين التي كانت تزين هيكل معبده الصغير، وأطفأ الشموع ولم يبدد من الوقت ثانية فأحل محل الصور المحطمة كتب بعض الفلاسفة الملحدين كبوخنر ومولشوت. ثم أشعل الشموع ثانية بورعٍ، أجل، لقد تحول موضوع معتقداته الدينية، ولكن أيمكن أن يقال إن مشاعره الدينية تغيرت؟

أقول مكررًا إن بعض الحواث التاريخية ولا سيما أهمها، لا يدرك أمره إلا بعد النظر إلى الشكل الديني الذي لا تلبث عقائد الجماعات أن تصطبغ به على الدوام، ويتطلب كثير من الحوادث الاجتماعية دراسة على طريقة علماء النفس أكثر من تطلبه دراسة على نمط علماء التاريخ الطبيعي، ولم يدرس مؤرخنا الكبير تاين الثورة الفرنسية إلا كعالم من علماء التريخ

الطبيعي فغاب عنه تكوين الحوادث في الغالب، نعم، إن ملاحظة هذا الكاتب الشهير للحوادث كاملة، ولكنه إذ لم ينفذ في روح الجماعات لم يعرف أن يصل إلى عللها في كل وقت، وإذا أفزعته الحوادث من ناحيتها الدموية والفوضوية والوحشية فإنه لم يرَ في أبطال تلك الواقعة غير قوم من المصروعين السائرين وراء غرائزهم بلا رادع، ولا يفسر ما نشأ عن الثورة الفرنسية من أعمال العنف وسفك الدماء والاحتياج إلى الدعاية وشهر الحروب على جميع الملوك إذا عدَّت تلك الثورة وليدة معتقد ديني جديد في روح الجماعات، وما ثورة الإصلاح الديني ومذبحة سان بارتلمي والحروب الدينية ومحاكم التفتيش والهول إلا حوادث من ينبوع واحد، أي صادرة عن تلقين تلك المشاعر الدينية التي تقود بحكم الضرورة إلى إبادة من يعارض قيام المعتقد الجديد بالنار والحديد، وما أساليب محاكم التفتيش والهول إلا أساليب المؤمنين الحقيقيين، وهؤلاء إذا ما اتخذوا أساليب أخرى لم يكونوا مؤمنين.

وانقلابات كالتي ذكرتها لا تكون ممكنة إلا إذا نبعث من روح الجماعات، ويعجز أشد الطغاة استبدادًا عن إثارتها، والمؤرخون، حين يبيِّنون أن مذبحة سان بارتلمي هي من عمل أحد الملوك، يدلون على جهلهم روح الجماعات وروح الملوك، وظاهرات مثل تلك لا تصدر عن غير الروح الشعبية، ولا يذهب سلطان أكثر الملوك المطلقين طغيانًا إلى أبعد من تعجيل وقوع الانقلابات أو تأجيله زمنًا قليلًا، ولم يكن الملوك هم الذين

أحدثوا مذبحة سان بارتلمي والحروب الدينية، كما أن روبسبير ودانتون وسان جوست لم يحدثوا الهول، فخلف مثل هذه الحوادث تجد روح الجماعات على الدوام.

الباب الثاني

آراء الجماعات ومعتقداتها

الفصل الأول العوامل البعيدة في معتقدات الجماعات وآرائها

العوامل التمهيدية لمعتقدات الجماعات- تفتح معتقدات الجماعات هو نتيجة نضج سابق- دراسة مختلف الهوامل في تلك المعتقدات:

العرق- ما للعرق من تأثير عظيم- العرق هو عنوان تلقينات الأجداد.

التقاليد- التقاليد هي خلاصة روح العرق- ما للتقاليد من أهمية اجتماعية- التقاليد تصبح مضرة بعد أن كانت ضرورية- الجماعات هي أكثر المحافظين على الأفكار التقليدية عنادًا.

الزمان- الزمان يهيئ استقرار المعتقدات قم يهيئ تفويضها- يمكن للنظام أن ينبثق من الفوضى بفضل الزمان.

النظم السياسية والاجتماعية- الرأي الخاطئ في شأنها- تأثيرها ضعيف للغاية- هي معلولات لا علل- لا تستطيع الأمم أن تختار النظم التي يلوح لها أنها خير من سواها- النظم عناوين تنطوي على اشد الأمور تباينًا- كيف توجد النظم- ضرورة بعض النظم الرديئة نظريًا لبعض الأمم كالنظم المركزية.

التعليم والتربية- خطأ الأفكار الحالية في تأثير التعليم لدى الجماعات- ما تشير إليه الإحصاءات- شأن التربية اللاتينية المفسد للأخلاق- النفوذ الذي يمكن أن يكون للتعليم- أمثلة عن أمم مختلفة.

إن العوامل التي توجب هذه الآراء والمعتقدات نوعان: العوامل البعيدة، والعوامل القريبة.

فأما العوامل البعيدة فهي التي تجعل الجماعات قادرة على اتخاذ بعض المعتقدات وغير مستعدة لتقبل معتقداتٍ آخرى، وهذه العوامل تهييئ البقعة التي تنبت فيها أفكار جديدة بغتة، فتثير قوة هذه الافكار ونتائجها الحيرة، غير أن تلك الأفكار لا تكون طوعية إلا ظاهرًا، ومما يفاجئ كالصاعقة أحيانًا انفجار بعض الأفكار لدى الجماعات والعمل بها، مع أن هذا ليس في الغالب إلا نتيجة سطحية لعملٍ سابق طويل يجب أنب يبحث عنه.

وأما العوامل القرية فهي التي تنتضد فوق ذلك العمل الطويل الذي لا يمكنها أن تؤثر بغيره، فيكون للجماعات بها مقنع مؤثر، أي إنها تكسب الفكر شكلًا وتفكه من عقاله من جميع نتائجه، وينبثق بدفعٍ من هذه الوامل القريبة عزائم تثير الزمر بغتةً، وبهذه العوامل تشتعل فتنة أو يقرر إضراب، وبها ترفع جموع غفيرة رجلًا إلى السلطة أو تقلب حكومة رأسًا على عقب.

وفي جميع حوادث التاريخ الكبرى يرى تأثير متعاقب لذينك النوعين من العوامل، وإذا لم تتخذ من الأمثلة غير التي تشمل النظر فنظرنا إلى الثورة الفرنسية وجدنا بين العوامل البعيدة لهذه الثورة انتقادات الكتاب ومظالم

العهد السابق، فلما لأعدَّت روح الجماعات على هذا الوجه سهلت إثارتها بالعوامل القريبة كخطب الخطباء ومقاومة البلاط للإصلاحات التافهة.

وبين هذه العوامل البعيدة تجد عوامل عامة في صميم جميع آراء الجماعات ومعتقداتها، وهي: العرق والتقاليد، والزمن والنظ والتربية، وسنبحث الآن في شأن كل واحد منها.

العرق

يجب أن يوضع عامل العرق في الصف الأول لما له من الأهمية البالغة أكثر من غيره بدرجات، وقد درسنا هذا العامل في كتاب سابق بما فيه الكفاية فلا نرى فائدة في الكلام عنه مطولًا، وفي ذلك الكتاب تبينا ما هو العرق التاريخي، فأوضحنا أن العرق بعد أن تتكون أخلاقه تفدو معتقداته ونظمه وفنونه، وإن شئت فقل جميع عناصر حضارته، عنوان روحه الظاهر، ويبلغ عامل العرق من القوة ما لا ينتقل معه أي عنصر من شعب إلى آخر من غير أن يعاني أعمق التحولات[6].

وتمثل البئة والأحوال تلقينات الزمن الاجتماعية، وهي مكنها أن تكون ذات تأثير مهم، ولكنه موقتٌ على الدوام، وإذا ما كان هذا التأثير مخالفًا لتلقينات العرق، أي لسلسلة الأجداد.

[6] بما أن هذه القضية لا تزال حديثة ولا يدرك التاريخ بغيرها فقد خصصت لإثباتها عدة فصول من كتابي "السنن النفسية لتطور الأمم"، وفي هذا الكتاب يرى القارئ، على الرغم من الظواهر الخادعة، أن اللغة والديانة والفنون، أي كل عنصر من عناصر الحضارة، لا يمكن أن تنتقل سليمة من أمة إلى آخرى.

وسيتاح لنا في غير فصل من هذا الكتاب، أن نعود إلى تأثير العرق، فنبين أن هذا التأثير يكون عظيمًا ما سيطر على الأخلاق الخاصة بروح الجماعات، فمن أجل ذلك تتم جماعات مختلف البلدان بمعتقداتها وسلوكها عن فروق بارزة جدًا، وعلى أنه لا يمكن أن يؤثر فيها على نمط واحد.

التقاليد

تمثل التقاليد أفكار الماضي واحتياجاته ومشاعره، والتقاليد خلاصة العرق وهي شديدة الوطأة علينا.

لقد تحولت علوم الحياة منذ أن أثبت علم الأجنة تأثير الماضي العظيم في تطور الموجودات، وستسير العلوم التاريخية على ها النحو بعد أن ينتشر ذلك المبدأ أكثر من قبل، ولم ينتشر ذلك المبدأ بما فيه الكفاية، فظل كثير من رجال السياسة قائلين بمبادئ نظريي القرن السابق، فيخيل إليهم أن المجتمع يمكنه أن يقطع صلاته بالماضي وأن يتجدد بأسره متخذًا نور العقل دليلًا له.

إن الأمة نظامٌ أوجده الماضي، وهذا النظام، ككل نظام، لا يمكنه أن يتجول إلا بتراكمات وراثية بطيئة.

وقادة الأمم الحقيقيون هي التقاليد، ولا يسهل على ءلاء القادة أن يغيروا منها غير الأشكال الخارجية كما قلت ذلك غير مرة، ولا يمكن حضارة أن تقوم بغير تقاليد أي بغير روح قومية.

وشغلا الإنسان العظيمان، منذ وجد، هما إيجاد شبكة من التقاليد ثم نقض هذه الشبكة إذا اعترى الوهن نتائجها النافعة، وإذا كانت الحضارة لا تقوم بغير تقاليد ثابتة فإنه لا تقدم بغير إزالة هذه التقاليد ببطء، والصعوبة هي في غيجاد توازن صحيح بين الثبات والتقلب، وهذه الصعوبة كبيرة، وإذا حدث أن أمة استقرت تقاليدها استقرارًا متينًا في عدة أجيال فإنه لا تقدم بغير إزالة هذه التقاليد ببطء، والصعوبة هي في إيجاد توازن صحيح بين الثبات والتقلب، وهذه الصعوبة كبيرة، وإذا حدث أن أمة استقرت تقاليدها استقرارًا متينًا في عدة أجيال فإن هذه الأمة لا تقدر على التطور فتغدو عاجزةً عن التكامل كالصين، حتى إن الثورات العنيفة نفسها تصبح عاجزة، وذلك لأن الذي يقع هو أن قطع السلسلة المحطمة تلتحم مرة آخرى فيسترد الماضي سلطانه بلا تبديل، أو تؤذي تلك القطع المتفرقة إلى الفوضى فإلى الانحطاط السريع.

وعمل الأمة الأساسي يجب أن يهدف أيضًا إلى صيانة نظم الماضي مع تعديلها شيئًا فشيئًا، وهذا عمل صعب، والرومان في الأزمنة القديمة والإنكليز في الأزمنة الحديثة وحدهم هم الذين حققوا ذلك تقريبًا.

وأشد محافظي الأفكار التقليدية عنادًا أو أكثر معارضي تبديلها إصرارًا هم الجماعات على التحقيق، ولا سيما نوع الجماعات التي تتألف الطبقات منها وقد سبق أن أسهبت الكلام عنهذه الروح المحافظة فبينت أن كثيرًا من الثورات لا يؤدي إلى غير تغيير الألفاظ، ومن ذلك أن كان يوجد في أواخر

القرن الماضي ما يسوغ الاعتقاد القائل بأن الأفكار القديمة خسرت كل قوة، وذلك عند النظر إلى الكنائس المهدومة، وإلى القصاوسة المطرودين أو الذين أعدموا بالمقصلة، وإلى ما أصيب به المذهب الكاثوليكي من الاضطهاد العام، غلما مضت سنوات قليلة أدت احتجات الناس العامة إلى إعادة ذلك المذهب الملغي[7].

ولا تجد مثالًا أوضح مما تقدم في سلطان التقاليد على روح الجماعات، ولا تعصم المعابد أشد الأصنام رهبة، ولا القصور أشد الطغاة استبدادًا، فمن السهل تحطيمها، وإنما يتفلت السادة غير المنظورين الذين يهيمنون على نفوسنا من كل مسعى، وهم لا يذعنون لغير بلى القرون البطيء.

الزمان

الزمان من العوامل الفعالة في المسائل الاجتماعية كما في مسائل علم الحياة، والزمان يمثل الموجد الحقيقي، والهادم العظيم، والزمان هو الذي أقام الجبال من ذرات التراب، وهو الذي رفع الخلية الغامضة في العصور الجيولوجية إلى منزلة الإنسان، ويكفي لتحويل أية حادثة أن تنالها يد

[7] إن تقرير عضو مجلس العهد القديم، فوركوا، الذي استشهد به تاين واضح من هذه الناحية فقد جاء فيه:
"يثبت ما يرى في كل مكان من تقديس يوم الأحد والتردد إلى الكنائس أن مجموع الفرنسيين يريد العودة إلى العادات القديمة، فلا تجدي مقاومة هذا الميل القومي...
ويحتاج معظم الناس إلى دين ومذهب وقسوس، ومن خطأ بعض الفلاسفة المعاصرين الذي سرت عليه بنفسي هو أن يعتقد إمكان نشر تعليم، بدرجة الكفاية، للقضاء على الأوهام الدينية، فهذه الأوهام منبع سلوان لأكثر التعساء.
فيجب، إذن، ترك، معظم الشعب وقسوسه وهياكله وعبادته".

القرون، ومن الصواب أن قيل إن النملة التي يمتد أمامها الزمن يمكنها أن تسوِّي الجبل الأبيض، ومن يملك قوة تصريف الزمان كما يشاء يكن صاحب القدرة التي يعزوها المؤمنون إلى إلههم.

بيد أننا لا نتكلم هنا عن غير تأثير الزمن في تكوين المعتقدات، ويظهر أن عمل الزمن من هذه الناحية عظيم أيضًا، والزمن يتصرف في القوى الكبيرة التي لا يمكن أن تتكون بغيره كالعرق مثلًا، والزمن هو الذي يحول جميع المعتقدات ويميتها، وبالزمن تكتسب المعتقدات سلطانها، وبالزمن تخسر هذا السلطان.

والزمن يهيئ آراء الجماعات ومعتقداتها، أي التربة التي تنبت فيها، ومن هنا يبدو أن بعض الآراء التي يمكن تحقيقها في زمن لا تحقَّق في زمن آخر، والزمن يركم راسب المعتقدات والآراء الكبير فتظهر عليه أفكار أحد الأدوار، ولا تنبت هذه الأفكار اتفاقًا وعرضًا، فهي ذات جذور تسوخ في ماضٍ طويل، وهي إذا أزهرت وقع ذلك بعد أن يكون الزمن قد هيّأ تفتُّحها، وإلى الوراء يجب أن يرجع والزمان هو مولانا الحقيقي إذن، ويكفي أن يترك الزمان يسير ليرى تحوُّل لك شيء، وترى القلق يساورنا كثيرًا لما يصدر عن الجماعات من رغباتٍ ذات وعيدٍ وبما تم هذه الرغبات من تخريبات وانقلابات، والزمان وحده كفيلٌ بأن يعيد التوازن، ومن الصواب قول مسيو لافيس: "لاتجد نظامًا يقوم في يوم واحد، وما تراه من نظم سياسية واجتماعية فهو وليد أعمال تمت في قرون، وقد ظل النظام

الإقطاعي مشوهًا مضطربًا قرونًا كثيرة قبل أن يجد قواعده، وقد عاش النظام الملكي المطلق عدة قرون قبل يجد وسائل منظمة للحكم فحدثت اضطرابت عظيمة في أدوار الانتظار تلك.

النظم السياسية والاجتماعية

لا يزال منتشرًا إلى الغاية، المبدأ القائل إن النظم يمكن أن تعالج مساوئ المجتمعات، وإن تقدُّم الأمم ينشأ عن كمال الدساتير والحكومات، وإن التحولات الاجتماعية تتم بقوة المراسيم، وكان هذا المبدأ نقطة البداءة للثورة الفرنسية وإلى هذا المبدأ تستند النظريات الاجتماعية الحاضرة.

ولم توفق أكثر التجارب اتصالًا لزعزعة هذا الوهم المرهوب، وما حاوله الفلاسفة والمؤرخون من إثبات فساده فقد ذهب أدراج الرياح، ولم يعسر على هؤلاء أن يبيِّنوا مع ذلك أن النُّظم وليدة الأفكار والمشاعر والطبائع، وأن الأفكار والمشاعر والطبائع لا تجدّد بتجديد القوانين، والأمة لا تختار نظمها كما تشاء كما أنها لا تختار لون عيونها وشعورها، والنظم والحكومات ثمرة العرق، ولا تكون النظم والمعتقدات موجدة أحد الأدوار، بل هي وليدة هذا الدور، ولا تحكم الأمم وفق هواها في وقتٍ ما، بل تحكم كما تتطلبه أخلاقها، ويقتضي تكوين نظام سياسي عدَّة قرون أحيانًا، ويقتضي تبديله عدَّة قرون أيضًا، وليست في النظم فضيلة ذاتية، وليست النظم صالحة أو طالحة في نفسها، وإذا صلحت النظم لأمة في زمن فإنها تكون كريهة في زمن آخر.

ولا تقدر أمة على تغيير نظمها تغييرًا حقيقيًا إذن، أجل، تستطيع الأمة أن تغير اسم النظم بفعل الثورات العنيفة لا ريب، ولكن الأساس لا يتغير أبدًا، والأسماء هي عناوين فارغةٌ لا يبالي بها المؤرخ الذي ينظر إلى قيمة الأمور الحقيقية، ومن هذا القبيل أن إنكلترا أكثر بلاد العالم ديمقراطية مع أنها خاضعة لنظام ملكي[8] على حين ترى الجمهوريات الإسبانية الأمريكية التي تسودها نظم جمهورية تعاني استبدادًا شديدًا، فأخلاق الأمم لا الحكومات، هي التي تعين مقادير هذه الأمم، وقد حاولت أن أقرر هذه الحقيقة في كتاب سابق مستندًا إلى أمثلة بارزة.

ولذلك كان من لغو فارس البيان وعبثه أن يضيه وقته في صنع الدساتير، والضرورة والزمان هما الكفيلان بإعدادهما إذا ما ترك هذان العاملان يفعلان، وعلى هذا سار الأنغلوسكسون كما نص عليه المؤرخ الكبير ماكولي في صفحة يجب على محترفي السياسة في جميع البلدان اللاتينية أن يحفوظها عن ظهر قلب، فبعد أن أوضح ماكولي محاسن القوانين الناشئة على ما فيها من سوء وتناقض من حيث العقل الصرف قابل بين دساتير إنكلترا والبضعة عشر دستورًا المختنقة في اختلاجات الأمم اللاتينية في أوربا وأمريكا فأظهر أم دساتير إنكلترا لم تتغير إلا ببطء مقدارًا فمقدارًا،

[8] ذلك ما يعرفه أكثر الجمهوريين تقدمًا حتى في الولايات المتحدة، وقد أعربت جريدة فوروم الأمريكية عن هذا الرأي الطريف بعبارات أنقلها من عدد مجلة المجلات الصادر في ديسمبر سنة 1894، وهي :" لا ينبغي أن يذهب عن بال أشد أعداء الأرستوقراطية حماسة، أيضًا، أن إنكلترا أشد بلاد العالم ديمقراطية في الوقت الحاضر، فحقوق الفرد في إنكلترا محترمة أكثر مما في غيرها، وفي إنكلترا يتمتع الأفراد بحرية أكثر مما في سواها.

وذلك بفعل الضرورات، لا بفعل البراهين النظرية، "وإذا سألت عن القواعد التي وجهت مناقشات برلماناتنا ال 250 منذ عهد حنًّا حتى عهد فيكتوريا وجدتها تقوم تقوم على عدم اللامبالاة بالمطابقة وعلى عدم الاكتراث للمنفعة وعلى عدم إزالة الشذوذ لأنه شذوذ وعلى عدم الابتداع ما لم يغد الانحراف محسوسًا وعلى الابتداع بالمقدار الذي يزال به هذا الانحراف وعلى عدم وضع اقتراح أوسع من الحال الخاصة التي تعالج".

ويجب أن يبحث في قوانين كل أمة ودساتيرها على انفراد لإثبات درجة صدورها عن احتياجات عرقها وأنها لا تتغير بعنف لهذا السبب، أجل، يمكن أن يجادل فلسفيًا في منافع النظام المركزي ومساوئه مثلًا، بيد أننا إذا ما أبصرنا أمة مؤلفة من أعراق مختلفة تبذل جهود ألف سنة لتصل بالتدريج إلى هذه المركزية، وإذا ما رأينا أن ثورة عظيمة اشتعلت لتحطيم جميع نظم الماضي فاضطرت إلى ضرورات الإفراط في تلك المركزية فضلًا عن احترامها، أمكننا أن نستنبط أن المركزية وليدة قاهرة لها وشرط من شروط حياتها فنرثى لضعف نفسية رجال السياسة الذين يقولون بتفويضها، ولو كتب الفوز لرأي هؤلاء مصادفة لكان هذا الفوز نذير فوضى عميقة[9] تؤدي إلى نظام مركزي جديد أشد وطأ من النظام المركزي السابق.

[9] إذا أنعمنا النظر في الانقسامات الدينية والسياسية التي تفرق بين مختلف الأحزاب في فرنسا والتي هي مسألة عرق ومناخ انفصالية تجلت أيام الثورة الفرنسية فرسمت مجددًا في أواخر الحرب الفرنسية الألمانية، أبصرنا أن الأعراق المختلفة التي تسكن بلادنا لا تزال بعيدة من أن ينصهر بعضها في بعض، ومن الحق أن يقال إن ما أسفرت عنه الثورة الفرنسية من المركزية الصارمة ومن إيجاد مديريات مصنوعة معدة لخلط الولايات القديمة هو أكثر أعمالها نفعًا، ولو أمكن انتحال نظام

ومما تقدم نستنتج أنه لا ينبغي أن يبحث في النظم عن وسائل التأثير العميق في روح الجماعات، فترى بعض البلاد، كالولايات المتحدة، تزدهر بنظم ديمقراطية بما يثير العجب، على حين ترى بلادًا أخرى، كالجمهوريات الإسبانية الأمريكية، تعيش في فوضى محزنة على الرغم من نظمها المشابهة لتلك، وهذه النظم هي غير ذات دخل في عظمة الأولى كما أنها لا دخل لها في انحطاط الأخرى، والأمم محكومة بأخلاقها، وكل نظام لا يصدر عن هذه الأخلاق ليس إلا ثوبًا مستعارًا، ليس إلا تنكرًا مؤقتًا، ومما لا مراء فيه أن حروبًا دامية وثوراتٍ عنيفة اشتعلت، وستوقد نارها فيما بعد، فرضًا لنظم يعزي إليها سلطانٌ خارق للعادة قادر على إيجاد السعادة، ويمكن أن يقال، إذن، إن النظم تؤثر في روح الجماعات بمعنى لما تقتضيه من تلك الفتن، بيد أننا نعرف في الحقيقة أن النظم، منصورة كانت أم مقهورة، لا تنطوي في ذاتها على أية فضيلة وأن الناظر الذي يتتبع فتحها لا يتتبع سوى أوهام.

التعليم والتربية

تجد في الصف الأول من الأفكار التي تسود الدور الحاضر الفكر الآتي وهو: أن التعليم يؤدي، لا ريب، إلى إصلاح الناس وجعلهم متساوين، ولم يعتم هذا الزعم أن أصبح من عقئد الديمقراطية الراسخة بفعل التكرار، وقد

اللامركزية الذي يقول به كثير من ذوي الغفلة لأدى عذا النظام من فوره إلى أشد الفتن سفكًا للدماء، فالغفلة عن هذا تعني نسيان تاريخنا تامًا.

صار من الصعب أن يمسَّ هذا الاعتقاد في زماننا كما كان يصعب مسُّ عقائد الكنيسة فيما مضى.

بيد أنك ترى اختلافًا شديدًا بين الأفكار الديمقراطية ومعطيات علم النفس والتجربة، ولم يجد كثيرٌ من أفاضل الفلاسفة ولا سيما هربرت سبنسر، عناءً كبيرًا في إثباتهم أن التعليم لا يجعل الإنسان أكثر أخلاقًا ولا أعظم سعادة وأنه لا يغير غرائز الإنسان وشهواته الموروثة، وأنه إذا ما أسيء توجيهه أمكن أن يكون ضرُّه بتعميم التعليم، أو نوع من التعليم على الأقل، وأن الفوضويين الذين هم ألد أعداء المجتمع يجمعون في الغالب من الفائزين في المدارس، ومما أشار إليه القاضي المفضال، مسيو أدولف غيُّو، أنه يعدُّ في الزمن الحالي ثلاثة آلاف مجرم مثقف تجاه ألف مجرم أميٍّ، وأن نسبة الجرائم في خمسين سنة صارت **552** في المئة، من كل مئة ألف شخص بعد أن كانت **227** أي نسبة **133** في المئة، ومما لاحظه ذلك القاضي مع زملائه أن الإجارم يزيد عى الخصوص لدى الشبان الذين استبدلوا التعليم الإلزامي مجانًا بالتعليم بأجرة.

وولا ريب في أن أحدًا لم يقل إن التعليم إذا ما أحسن توجيهه لا يؤدي إلى نتائج عملية مفيدة إلى الغاية في تنمية الأهليات المهنية على الأقل، إن لم يرفع مستوى الأخلاق، ومن المؤسف أن الأمم اللاتينية منذ ثلاثين سنة على الخصوص أقامت نظامها التعليمي على مبادئ معيبةٍ جدًا وأنها تصرُّ على أضاليها المحزنة على الرغم من الملاحظات التي يبدها أناس من ذوي

الفضل، مثل بريال وفوستل دو كولنج وغيرهم، ومما بيَّنته في كتب مختلفة10 أن تربيتنا الحاضرة تحول عددًا كبيرًا ممن يتلقونها إلى أعداء للمجتمع وأنها تجمع كثيرًا من التلاميذ لأسوأ طرق الاشتركية.

وأول خطر في تلك التربية التي أصيب في وصفها بالاتينية هو في قيامها على خطأ نفسي أساسي، هو في أن يتصور استظهار الكتب المختصرة ينمي الذكاء، ومن هنا جاء الجد في حفظ أقصى ما يمكن أن يحفظ منها عن ظهر قلب، فلا يصنع الشاب، من المدرسة الابتدائية حتى الدكتوراه، حتى الأستاذية، سوى ابتلاع الكتب من غير أن يعمل قوة التمييز والمبادرة فيه، فالتعليم عنده يقوم على الاستظهار والإطاعة، قال أحد وزراء المعارف العامة السابقين مسيو جول سيمون: "يتألف من استظهار الدروس وحفظ الكتب نحوٍ أو موجزٍ على ظهر القلب وإجادة التكرار وحسن التقليد تربية هزيلة ينم كل جهد فيها على تسليم أمام عصمة المعلم ولا يؤدي إلى غير نقصنا وجعلنا من العاجزين".

ولو اقتصر أمر تلك التربية على عدم فائدتها لاكتفى بالرثاء للأولاد التعساء الذين استبدل بتعليمهم الأمور الضرورية الكثيرة تعليم سلسلة نسب أبناء كلوتير ووقائع نسترية وأسترازية وفصائل الحيوان، ولكن تلك التربية تنطوي على خطر أعظم من ذلك، تنطوي على تلقين من يتلقاها نفورًا شديدًا من الحال التي ولد عليها ورغبة شديدة في الخروج منها، فلا

10 انظر إلى الطبعة السابعة من "روح الاشتراكية"، وإلى الطبعة الرابعة عشرة من "روح التربية"

العامل يريد أن يكون عاملًا، ولا الفلاح يريد أن يكون فلاحًا، ولا آخر أبناء الطبقة الوسطى يرى لأولاده منهة أصلح من مناصب الدولة ذات الرواتب، وهكذا ترى المدرسة لا تعد رجالًا للحياة، بل تعد رجالًا للوظائف العامة التي لا يتطلب النجاح فيها أي بصيص من قوة المبادرة، والمدرسة توجد في أسفل السلم الاجتماعي تلك الجحافل من الصعاليك المتعضين من طالعهم والمتعدين للعصيان على الدوام وتبصر في أعلى ذلك السلم طبقتنا الوصطى الطائشة، المرتابة الساذجة معًا، والمشربة باعتماد خرافي على قدرة الدولة، مع أنها لا تنفك توجه سهام اللوم إليها مجرمة الحكومة بآثامها الخاصة عاجزة عن إتيان شيء بغير تدخل السلطة.

والدولة التي تصنع بالكتب الموجزة حملة الشهادات أولئك لا تستطيع أن تستخدم منهم غير عدد قليل فتضطر إلى ترك الباقين بلا وظائف، فيجب أن تسلم، إذن، بإجراء الرق على الأولين ومعاناة عداوة الآخرين، ولو نظرت إلى الهرم الاجتماعي من أعلاه إلى أسفله لوجدت جميع حملة الشهادات الهائل يحاصر الوظائف فيه في الوقت الحاضر، وقد يصعب على تاجر أن يجد له نائبًا يذهب إلى المستعمرات فيقوم فيها بأعماله، مع أنك تجد ألوف الطلاب الراغبين في أحقر الوظائف العامة، ومع ذلك أن مديرية السين وحدها تشتمل على عشرين ألف معلم ومعلمة بلا عمل فيخاطبون الدولة في أمر معاشهم في حين يزدرون الحقول والمصانع، وعدد من يختار من هؤلاء للوظائف إذ كان قليلًا عدد الساخطين منهم عظيمًا بحكم

الضرورة، فترى هؤلاء مستعدين لجميع الثورات مهما كان زعماء هذه الثورات وهجفها، فالحق أن اكتساب معارف ضارةٍ هو وسيلة لتحويل الرجل إلى ثائر11.

ومن الواضح أن مقاومة ضلك السيل أصبحت بعد الأوان، والتجربة وحدها، وهي آخر مربية للأمم، ستقوم بكشف الغطاء عن خطتنا، والتجربة وحدها ستثبت لنا ضرورة استبدال تعليم مهني قادر على رد الشبية إلى ما هو مهجور من الحقول والمصانع والمشاريع الاستعمارية بكتبنا الموجزة البغيضة وبمسابقاتنا التي يرثى لها.

وذلك التعليم المهني الذي يطالب به جميع ذوي البصائر في الوقت الحاضر هو التعليم الذي تلقاه آباؤنا فيما مضى، وهو التعليم الذي عرفت أن تحافظ عليه الأمم المسيطرة في الوقت الحاضر على العالم بإرادتها وقوة مبادرتها وروح الماضية كانت كالتربية الإنكليزية أو التربية الأمريكية الحاضرة تقريبًا، وقد قابل تاين بين المنهاج اللاتيني والمنهاج الأنغلوسكسوني مقابلة عجيبة فأبان نتائج هذين المنهاجين.

---

11 على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالأمم اللاتينية، فهي تشاهد أيضًا في الصين، في هذا البلد الذي تقوده كذلك سلسة من الموظفين، ذلك البلد الذي تنال فيه الوظائف بالمسابقات القائمة على تلاوة كتب كثيفة عن ظهر قلب فقط، واليوم يعد جحفل المتعلمين العاطلين عن العمل في الصين مصيبة قوميةحقيقية، وقللل مثل هذا عن بلاد الهند حيث تألفت طبقة خاصة من المتعلمين منذ فتح الإنكليز مدارس فيها، لا للثقافة كما في إنكلترا، بل لتعليم أبناء البلاد الأصليين، فالمتعلم في الهند إذا لم يستطع أن ينال وظيفةغدا عدوًا شديدًا للسلطة الإنكليزية، وأول أثر للتعليم في متعلمي الهند هو خفض مستوى أخلاقهم خفضًا عظيمًا، موظفين كان هؤلاء أم لم يكونوا، وقد أفضت في بيان هذا الأمر في كتاب "حضارات الهند"، وقد أبصر جميع المؤلفين الذين زاروا شبه جزيرة الهند الواسعة مثل ما أبصرت.

ولو كان اكتساب المعارف الكثيرة اكتسابًا سطحيًا واستظهار الكتب الموجزة الكثيرة استظهارًا كليًا يرفعان مستوى الذكاء لرضينا بجميع مساوئ تربيتنا المدرسية على ما يحتمل وإن لم تصنع غير منحطين وغير ساخطين، ولكن أتبلغ تربيتنا هذه النتيجة؟ كلا مع الآسف، فالتمييز والتجربة والمبادرة والخلق شروط للنجاح في الحياة، ولا تعلم الشروط في الكتب، أجل إن الكتب معاجم تفيد مراجعتها، غير أن الفضول شحن الدماغ بالفصول الطويلة.

وكيف تقدر التربية المهنية على إنماء الذكاء بما لا تؤدي إليه التربية المدرسية أبد؟ ذلك ما أجاد تاين بيانه في السطور الآتية، قال تاين:

"لا تتكون الأفكار في غير بيئتها الطبيعية الاعتيادية، والذي ينبت بذرتها هو ما لا يحصى من المؤثرات المحسوسة التي يتلقاها الفتى في كل يوم من المصنع والمنجم والمحكمة والمكتب والمعمل والمشفى، ومن منظر الأدوات والعدد والعمليات ومن حضور الزُّبن والعمال، ومن العمل ومن المصنوع الحسن والرديء، والغالي أو الرخيص، فهذه هي ما تناولها العين والأذن واليدان، حتى الشامة، من الأحاسيس الصغيرة الخاصة التي تلتقط التقاطًا غير مقصود والتي تنضج نضجًا غير منظور فتنتظم في الفتى لتوحي إليه، عاجلًا أم آجلًا، بتركيب جديد أو بتبسيط مركبٍ أو باقتصاد أو تحسين أو اخرتاع، والشاب الفرنسي محروم من جميع هذه الملامسات الثمينة ومن جميع هذه العناصر الضرورية التي يسهل هضمها، والشاب الفرنسي في السن

الخصيبة التي تدوم سبع سنين أو ثماني سنين يحجز في مدرسة بعيدًا من التجربة المستقيمة الذاتية التي كانت تمنُّ عليه لولا ذلك، بفهم صحيح حارٌّ للأشياء والناس و لأوجه التصرف فيها.

وتجد تسعة من العشرة على الأقل قد أضاعوا وقتهم وجهدهم وسنين كثيرة من حياتهم وسنين فعالة قاطعة، وأنتم عدوًّا قبل كل شيء نصف الذين يتقدمون إلى الامتحان أو ثلثيهم، أي المرفوضين، ثم عدوًّا النصف أو الثلين، أي المنهوكين، بين من كتب لهم النجاح من المصنفين والمأذونين وحملة الشهادات، ومن الإرهاق أن يطالبوا بأن يعوا بيانات حيّةً في طائفة من العلوم باحثةٍ عن جمع المعارف البشرية في ساعتين من نهارٍ معين وهم جالسون على كرسيّ أمام لوح، والواقع أنهم كانوا في ساعتين من ذلك النهار كما ذكرنا أو كانوا قريبًا مما ذكرناه بيد أنهم لا يلبثون أن يصبحوا غير ما ذكرنا بعد شهر، أي لا يقدرون على مجاوزة امتحان جديد، أي إن ما اكتسبوه، إذ كان كثيرًا ثقيلًا، يزلق من نفوسهم فلا ينالونه مجددًا وقد ارتخى نشاطهم الذهني وقد جفَّت عصارتهم الخصيبة، والرجل يظهر إذ ذاك وهو ليس برجل، وهذا الرجل المصنف المتزوج القانع بأن يدور في دائرة وضمن دائرة دورانًا لا حدّ له لا يركن إلى عمله الضيق، فيقوم بهذا العمل بانتظام، ولا شيء بعد هذا، هذا هو الدخل المتوسط، ولا يوازن الدخل الخرج لا ريب، وعكس هذا يقع في إنكلترا وأمركيا، وقبل سنة **1789** في فرنسا، حيث يساوي الدخل الخرج أو يزيد عليه".

وذلك المؤرخ الشهير يثبت لنا الفرق بين منهاجنا ومنهاج الأنغلوسكسون بعد ذلك، وذلك أن التعليم لدى الأنغلوسكسون لا يصدر عن الكتاب، بل عن الشيء نفسه، ومن ذلك أن المهندس يتخرج في مصنع لا في مدرسة بأي وجه فيمكن كل واحد أن يصل هنالك إلى درجة التي تناسب ذكاءه، فهو يكون فيه إما عاملًا وإما عريفًا إذا كان لا يستطيع أن يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، وهو يكون مهندسًا إذا كان ذا استعداد يؤهله لذلك، تلك هي طريقة ديمقراطية مفيدة للمجتمع غير التي تقوم بها مهنة الشخص على مسابقة بضع ساعاتٍ في ثماني عشرة سنة أو عشرين سنة، قال تاين:

"يتخرج التلميذ منذ صباه ويتمرن في المشفى أو المنجم أو المصنع أو على المهندس المعماري أو رجل القانون كما يتدرب عندنا الكاتب في مكتبه أو التلميذ في معمله تقريبًا، والتلميذ في البداءة، وقبل الدخول، يكون قد تلقى بعض الدروس العامة الموجزة لكي تكون لديه منطقة مهيأة لتقبل ما يبدو له من الملاحظات على آثر دخوله، على أن هنالك بضعة دروس فنية يمكنه أن يأخذها في ساعات فراغه فينظم بها ما يتفق له من التجارب اليومية شيئًا بعد شيء، ونظام كهذا يوجب زيادة الاستعداد العملي ونموه من تلقاء نفسه إلى الدرجة التي تناسب ملكات التلميذ وفي الاتجاه الذي يتطلبه عمله القادم بصنعٍ خاص يلائمه منذ الساعة الراهنة، وهكذا ينتهي الفتى في إنكلترا والولايات المتحدة إلى انتزاع جميع ما في نفسه

بنفسه من فوره فإذا بلغ السنة الخامسة والعشرين من عمره أو كاد يبلغها، وكان لديه من الجوهر والمادة ما يكفي، عاد لا يكون منفذًا نافعًا فقط، بل ملتزم من تلقاء نفسه أيضًا، وفي فرنسا حيث قيل بالطريقة المعاكسة، وحست صارت هذه الطريقة أشد صينية مع الأجيال، غدا مجموع القوى الضائعة عظيمًا"

ويصل ذلك الفيلسوف الكبير إلى النتيجدة الآتية في زيادة عدم مطابقة تربيتنا اللاتينية، فقد قال:

"مُدّ وأرهق الإعداد النظري والمدرسي على المقاعد وبالكتب في مراتب العليم الثلاث: في الطفولة والمراعقة والفتوة،وذلك في سبيل الامتحان، والدرجة والشهادة والمأذونية، في سبيل هذه الأمور فقط، وبأسوا الوسائل وبالدراسة الداخلية، والاجتذاب المصنوع، وبالحشو الآلي، وبالإعاياء،من غير نظرٍ إلى الوقت الذي يأتي، ومن غير نظرٍ إلى سن الرشد وإلى ما سيقوم به الشاب من واجبات الرجولة، ومن غذضٍّ طرف عن العالم الحقيقي الذي سيخرج الفترى إليه بعد قليل، وعن المجتمع المحيط الذي يجب أن يجعل ملائمًا له أو مسلمًا به سلفًا وعن الصراع البشري الذي لا بد للدفقاع و الوقوف فيه على الرّضجلين من التأهب والتسلح والممارسة والصلابة مقدمًا، ولا تمنح مدارسنا ذلك التأهب الذروري للفتى، ولا تلك القنية التي هي أهم من الأمور الآخرى، ولا تلك المتانة في حسن الذوق والإرادة والأعصاب، ويسير كل شيء إلى العكس، وتبتعد تلك المدارس عن إعداده

فلا تجعله أهلًا لما ينتظره من حال قريب محتوم، وهو يسير فيدخل العالم فلا يكون نصيب خطاه الأولى في معترك العمل غير السقوط المتعاقب الأليم فيظل فيه مرضوضًا، ويبقى فيه لزمن طويل منغصًا/ مقعدًا في بعض الأحيان، إا إن هذا ابتلاء كبير خطر، ألا أن هذا ابتلاءٌ يفسد فيه توازن الخلق والذهن فيخشى ألا يعود هذا التوازن، إلا إن تبدد الخيال جاء سريعًا كاملًا فكانت خيبة الأمل عظيمة والكروب شديدة12"

وهل ابتعدنا بما تقدم عن روح الجماعات؟ كلا لا ريب، فمن يرغب في فهم الأفكار والمعتقدات التي تنبت فيها اليوم وتتفتح فيها غدًا لا بد له من معرفة الوجه الذي أعدت به التربة، وما يتفق للشبيبة من التعليم في بلد يساعد على تبين مصاير هذا البلد، وما كان من التربية والجيل الحاضر فيسوغ أقتم ما يستبصر، وبالتعليم والتربية تصلح روح الجماعات أو تفسد من بعض الوجوه ومن الضروري، إذن، أن تشرح كيفية إعداد المنهاج الحاضر لها، وكيفية تحول جميع الأخلياء والمحايدين بالتدريج إلى جيش الساخطين العظيم المستعد لاتباع تلقينات ذوي الخيال ورجال البيان، واليوم تصنع الدرسة ساخطين وفوضويين، واليوم تعيء المدرسة للأمم اللاتينية ساعات الانحطاط.

[12] انظر إلى الجزء الثاني من كتاب تاين: "النظام الحديث"، 1894، وهذه الصفحات هي آخر ما كتبه تاين تقريبًا، وهي خلاصة عجيبة لنتائج تجربته الطويلة، والحق أن التربية وسيلتنا الوحيدة للتأثير في روح الشعب بعض التأثير، ومن دواعي الأسف الشديد أنك لا تكاد تجد في فرنسا رجلًا قادرًا على إدراك ما ينطوي عليه تعليمنا الحاضر من عناصر الانحطاط المرهوبة ذلك التعليم الذي يخفض الشبيبة بدلًا من رفعها.

الفصل الثاني العوامل القريبة في آراء الجماعات

(1) الصور والألفاظ والصيغ- قوة الكلمات مرتبطة فيما تثيره من الصورة المستقلة عن معناها الحقيقي- تختلف هذه الصور باختلاف الأزمان والأعراق- بل الكلمات- أمثلة مختلفة على تبدل هذه الصور باختلاف الأزمات والأعراق تبدلًا عظيمًا- الفائدة السياسية من إطلاق أسماء جديدة على أمورقديمة عندما تحدث الكلمات التي تدل على تلك الأمور أثرًا سيئًا في الجماعات- اختلاف معنى الكلمات باختلاف العرق- اختلاف معنى كلمة الديمقراطية في أوربا وفي أمريكا.

(2) الأوهام- أهميتها- هي موجودة في أساس جميع الحضارات- ضرورتها الاجتماعية- الجماعات تفضل الأوهام على الحقائق في كل وقت.

(3) التجربة- التجربة وحدها هي التي يمكنها أن تحدث في روح الجماعات ما أصبح ضروريًا من الحقائق وأن تقضي على ما أصبح ضارًا منها- لا تكون التجربة مؤثرة إلا إذا كررت كثيرًا- قيمة التجارب الضرورية في إقناع الجماعات.

(4) العقل- عدم تأثيره في الجماعات- لا يسيطر على الجماعات إلا بالتأثير في عواطفها اللاشاعرة- شأن المنطق في التاريخ- الأسباب الخفية للحوادث التي لا يحتمل تصديقها.

بحثنا في العوامل البعيدة والتمهيدية التي تمنح روح الشعوب استعدادًاخاصًا للتَّقبل، فتجعل من الممكن تفتُّح بعض المشاعر والأفكار لدى الجماعات، والآن بقي علينا أن نبحث في العوامل ذات التأثير المباشر، وسنرى في فصل قريب كيف تستعمل هذه العوامل لتظهر نتائجعا كلُّها.

وفي القسم الأول من هذا الكتاب درسنا مشاعر الجماعات وأفكارها ومداركها، ومن هذه المعرفة يمكننا أن نطَّلع بوجه عام على وسائل التأثير في روحها، ومما تقدم عرفنا الذي يقف خيال الجماعات وقدرة التلقينات وعدواها، ولا سيما ما كان من هذه التقنيات على شكل صور، ولكن إذ كانت التلقينات الممكنة من أصل مختلف أشد الاختلاف فقد تكون العوامل التي يؤثر بها في روح الجماعات على شيء من الاختلاف، ومن الضروري، إذن، أن يبحث فيها على انفراد، والجماعات ذات شبه بأبي هول القصة القديمة، فيجب أن نعرف حل الألغاز التي تطرحها علينا روحها أو نسلم بافتراسها إيانًا.

الصور والألفاظ والصيغ

رأينا حينما بحثنا في خيال الجماعات، أن الجماعات تتأثر بالصور على الخصوص، ونحن إذا لم تكن لدينا هذه الصور في كل وقت أمكننا أن نستحضرها باستعمال الألفاظ والصيغ استعمالًا بارعًا، والحق أن الألفاظ والصيغ إذا ما استخدمت بحذقٍ اتَّفق لها من السلطان الخفيّ ما عزاه إليها المؤمنون بالسحر فيما مضى، والحقُّ أنها تثير في روح الجماعات أشد

العواصف هولًا كما أنها توجب سكونها، ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية سلطان الألفاظ والصيغ لأمكن أن يقام منها هرمٌ أعلى من هرم خوفو القديم.

وسلطان الألفاظ مرتبط في الصور التي يثيرها، وهو مستقلٌّ عن مهناها الحقيقي، ومما يحدث أحيانًا أن يكون للألفاظ ذات التعريف الرديء أكبر تأثير، ومن ذلك الكلمات: الديمقراطية والاشتراكية والمساواة والحرية وما إليها من الألفاظ التي بلغ معناها من الغموض ما لا يكفي لتعيينه مجلداتٌ ضخمة، ومع ذلك تجد لمقاطع هذه الكلمات القصيرة قدرة سحرية كما لو كانت تلك المقاطع تنطوي على حلِّ جميع المعضلات، وبتلك الكلمات، وبتلك الكلمات يلخَّص مختلف الرغبات اللاشعورية وأمل تحقيقها.

ولا يستطيع العقل، ولا البراهين، مقاومة بعض الألفاظ وبعض الصيغ، والألفاظ والصيغ ينطق بها أمام الجماعات نطق احترام فتعنو لها الوجوه وتنحني أمامها الرؤوس، ويعدُّها كثير من الناس كقوى الطبيعية وكأقدار خارقة للعادة، أجل، إنها تثير في النفوس صورًا عظيمة مبهمة، غير أن الإبهام الذي يخالطها يزيد في قوتها الخفية، وهي تشبَّه بالآلهة المرهوبة المستترة خلف قبَّة العهد التي لا يدنو العابد منها إلّا مرتجفًا.

وإذ كانت الصور التي تثيرها الألفاظ مستقلة عن معناها فإنها تختلف بين جيل وجيل وبين شعب وشعب مع اتحاد الصيغ، وفي بعض الألفاظ

يرتبط بعض الصور ارتباطًا عابرًا فيكون اللفظ كزرِّ الاستغاثة التي يظهرها.

ومن الألفاظ والصيغ ما لا يستحضر صورًا، ومنها ما يبلي بعد أن يستحضر فلا يثير شيئًا في النفس، وتغدو الألفاظ إذ ذاك أصواتًا فارغة فتكون فائدتها الرئيسية في إغفاء من يستعملها من واجب التفكير، ومن ذلك أن لدينا، بما يتعلم في الصغر من الصيغ والعبارات الدارجة، كل ما يجب لمجازة الحياة من غير احتياج مجهد إلى التفكير.

ونحن إذا نظرنا إلى لغة من اللغات وجدنا أن الكلمات التي تتألف منها تتبدل ببطءٍ في غضون الأجيال، غير أن ما تثيره من الصور أو ما يرتبط بها من المعنى يتغير بلا انقطاع، ولذلك تراني قد انتهيت في كتابٍ آخر إلأى النتيجة القائلة إن الترجمة الصحيحة من إحدى اللغات، ولا سيما لغات الأمم البائدة، ضربٌ من المحال، وماذا نصنع بالحقيقة إذا ما استبدلنا عبارةً فرنسية بعبارة لاتينية أو يونانية أو سنسكريتية، أو حاولنا فهم كتاب ألف بلغتنا منذ بضعة قرون؟ إننا نكون قد استبدلنا ما أثارته الحياة العصرية في ذهننا من الصور والأفكار بما أوجبته الحياة القديمة من المابدئ والصور في روح أعراق خاضعة لأحوال معيشةٍ لا شبه بينهما وبين أحوالنا المعايشة، ومما حدث أن خيل لرجال الثورة الفرنسية أن يحذوا حذو الأغارقة والرومان فلم يصنعوا غير منحهم لطائفة من الكلمات القديمة ما لم يكن لها من المعاني قطُّ، وأي شبه يمكن أن يكون بين نظم الأغارقة والنظم

التي يعبَّر عنها بالكلمات نفسها في أيامنا؟ ألم تدل كلمة الجمهورية عندهم على نظام أرستوقراطي يقوم به لفيف من صغار الطُّغاة المسيطرين على جماعة من الأرقَّاء خاضعةٍ لأشد استعباد؟ وما كان لتلك الأرستوقراطيات البلدية القائمة على الرِّقُّ لتعيش ثانيةً بغير الرِّقِّ.

وما هو الشبه الذي يمكن أن يكون بين معنى كلمة الحرية في الوقت الحاضر ومعناها في زمن لم تخطر حرية الفكر فيه على قلب أحد، وفي زمنٍ لم يكن فيه جرمٌ أعظم ولا أندر من الجدال في آلهة المدينة وقوانينها وعاداتها؟ وكانت كلمة الوطن في روح الأثيني أو الإسبارطي تدل على عبادة أثينا أو إسبارطة، لا عبادة بلاد الإغريق المؤلفة من مدن متنافسة متحاربة على الدوام، وماذا كان معنى كلمة الوطن نفسها لدى قدماء الغوليين المنقسمين إلى قبائل متخاصمةٍ منتسبة إلى اعراق ذات لغات وديانات متباينة فسهل على قيصر أن يغلبها لما كان له بينها من حلفاء على الدوام؟ وروما وحدها هي التي أنعمتعلى بلاد الغول بوطنٍ حين منَّت عليها بالوحدة السياسية والدينية، ونحن إذا لم نعد إلى ماضٍ بعيد جدًا فرجعنا إلى نحنو قرنين فقط سألنا: أمن المنسب أن يعتقد أن كلمة الوطن كانت لدى أمراء فرنسا، الذين كانوا يحالفون الأجنبي على مليكهم كما صنع كونده الكبير، تدل على مثل معناها في الوقت الحاضر؟ ألم يكن لكلمة الوطن أيضًا معنى مختلف أشدَّ الاختلاف عن المعنى العصري، وذلك لدى المهاجرين الذين كان يخيَّل إليهم أنهم يعملون بشرائع الشرف عند محاربتهم فرنسا

والذين كانوا يطيعون وجهة نظرهم بالحقيقة ما دام الوطن الحقيقيَّ هو المكان الذي كان يقوجه وليَّ الأمر؟

وما أكثر الألفاظ التي تغيّر معناها تغيُّرًا عظيمًا بين جيل وجيل على الوجه المذكور، ونحن لا نفهمها كما كانت عليه في الماضي إلا بعد جهد طويل، وقد قيل بحقٍّ إنه لابد من مطالعات كثيرة لنتمثل ما كان يذهب إليه أجدادنا من معنى كلمة الملك والأسرة المالكة مثلًا، وماذا يكون أمر التعابير التي هي أكثر تعقُّدًا؟

إذن ليس بالألفاظ سوى معانٍ متحولة مؤقتة متغيرة بين جيل وجيل وبين أمة وأمة، وإذا ما أردنا أن نؤثر في الجماعة وجب أن نعرف ماا يكون معناها لدى الجماعة في زمن ما، لا المعنى الذي كان لها في الماضي، أو المعنى الذي يكون لها عند أفراد ذوي مزاج نفسي مختلف، فالألفاظ تعيش كالأفكار.

ولذلك نقول إنه إذا ما حدثت انقلابات سياسية وتحولات في المعتقدات فسفرت عن نفور عميق من الصور التي تثيرها بعض الألفاظ وجب على القطب السياسي أن يغير هذه الألفاظ من غير أن يمس الأمور نفسها، وذلك لأن هذه الأمور هي من شدة الارتباط في المزاج الموروث ما تيعذر معه تحويلها، ومما لاحظه العلامة توكفيل أن عهد القنصلي والعهد الإمبراطوري قام بوجه خاص على إلباس معظم نظم الماضي ألفاظًا جديدة، ومن ثم على انتحال ألفاظ تحول جدَّتها دون إثارة ما تثيره في الخيال ألفاظًا

آخرى من الصور المكروهة، ومن ذلك أن غدا الخراج ضريبة عقارية، واحتكار الملح ضريبة الملح، والمعونة ضرائب غير مقررة ومكوسًا منظمة، والعوائد المهنية رسوم إجازات سنوية إلخ.

ومما تقدم ترى أن من أهم وظائف رجال الدولة أن يتخذوا من الألفاظ المقبولة عند الشعب، أو المحايدة على الأقل، مايطلقونه على أشياء تمقتها الجماعات بأسمائها القديمة، وقدرة الألفاظ هي من العظم ما يكفي معه حسن اختيار في التعابير يرضى به أشد الأمور استكراهًا، وقد أصاب تاين في ملاحظته أن اليعاقبة استطاعوا باستعانتهم بكلمتي الحرية والإخاء اللتين كانتا مألوفتين إلى الغاية في ذلك الحين : « أن يقيموا استبداد خليق بالداهومية ومحكمة تعدل محكمة التفتيش ومذابح بشرية شبيهة بمذابح المكسيك الغابرة »، وتقوم مهنة الساسة، كما تقوم مهنة المحامين، على معرفة استعمال الألفاظ على الخصوص، والأمر صعب، ووجه الصعوبة في أن الألفاظ الواحدة في المجتمع الواحد معانى مختلفة في مختلف الطبقات الاجتماعية في الغالب، فهذه الطبقات، وإن كانت تستعمل ألفاظا واحدة في الظاهر، لاتتكلم بلغة واحدة.

وفي الأمثلة السابقة ذكرنا أن الزمان عامل رئيس في تغيير معاني الكلمات، و إذا كنا قد ذكرنا العرق أيضا فذلك لأن الألفاظ الواحدة تقابل في الغالب أفكارًا متباينة أشد التباين في الزمن الواحد لدى شعوب متماثلة تمدنا مختلفة عرقة، ولا يمكن تبين هذه الفروق بغير رحلات كثيرة، ولا

أخوض كثيرا في أمر العرق إذن، بل أقتصر على ملاحظتي أن أشد الألفاظ استعالا بين أمة وأمة هي التي تكون أشد المعاني اختلافًا، وذلك كاللفظين: الديمقراطية والاشتراكية، الكثيرى الاستعمال في الوقت الحاضر.

تُقابل ذينك اللفظين بالحقيقة أفكار وصور مختلفة اختلاف تاما في نفوس اللاتين وتفوس الأنغلوسكسون، فكلمة الديموقراطية لدى اللاتين تعني على الخصوص انزواء إرادة الفرد ومبادرته أمام إرادة الدولة ومبادرتها، فتكلف الدولة بالتوجيه والحضر والاحتكار شيئا فشيئا، و إلى الدولة يرجع جميع الأحزاب بلا استثناء و باستمرار، جذرية كانت هذه الأحزاب أو اشتراكية أو ملكية، و بالعكس تغني كلة الديموقراطية عند الأنغلوسكسون، ولا سيا الأمريكي، شدة نمو و الإرادة والفرد وانزواء الدولة فلا يترك للدولة شيء من التوجيه حتى التعليم، وذلك خلا أمور الشرطة والجيش والصلات السياسية، ومن ذلك ترى أن الكلمة الواحدة معانى متناقضة تناقضا مطلقا لدى الشعبين المذكورين13 .

الأوهام

عانت الأمم تأثير الأوهام منذ فجر الحضارات على الدوام، وأقامت الأمم لموجدى الأوهام أكثر المعابد والتماثيل والهياكل، والأوهام صاحبة السياسة المرهوبة، دينية كانت كما في الماضي أو فلسفية واجتماعية كانت كما في

[13] فصلت الفرق بين المثل الديمقراطي اللاتيني والمثل الديمقراطي الأنغلوسكسوني الأعلى في كتابي "السنن النفسيةلتطور الأمم"

الوقت الحاضر، بدت على رأس جميع الحضارات التي أزهرت في دنيانا، و باسم الأوهام شيدت معابد كلدة ومصر والمباني الدينية في القرون الوسطى وقلبت أوربة منذ قرن رأسا على عقب، ولا تجد مبدأ من مبادئنا الفنية أو السياسية أو الاجتماعية لا يتحمل طابع الأوهام المؤثر، والإنسان، و إن قدم الأوهام أحيانا بفعل الفتن الهائلة، يعيد رفعها على الدوام كما يلوح، ولولا الأوهام ما استطاع الإنسان أن يخرج من الهمجية الأولى، ولولا الأوهام لعاد الإنسان إلى الهمجية من فوره، أجل، إن الأوهام ظلال باطلة، غير أن بنات أحلامنا هذه هي التي حقت الأم إلى ابتداء ما يوجب روعة الفنون وعظمة الحضارات .

قال مؤلف ملخص لآرائنا : « ماذا يبقى من أحلام البشر الكبيرة لو قوّض في المتاحف والمكتبات وهدم على بلاط الباحات جميع الآثار والمباني الفنية التي أوحت بها الأديان ؟ لقد أسفر ما في الناس من أمل وأوهام لا كيان لهم بغيره عن وجود الآلهة والأبطال والشعراء ،نعم، ظهر العلم ذات حين قادرة على حمل ذلك العمل، غير أن الذي أنزل منزلته في الأفئدة المتعطشة إلى المثل الأعلى هو أنه عاد لا يجرؤ على الوعد وأنه لا يعرف الكذب بما فيه الكفاية »

وقف فلاسفة القرن الماضي أنفسهم بحرارة على تبديد ما عاش عليه آباؤنا في قرون كثيرة من الأوهام الدينية والسياسية والاجتماعية، وهم إذ بدوا

الأوهام استنزفوا منابع الأمل والتسليم فوجدوا خلف الأخيلة التي قضوا عليها قوى الطبيعة التي التي لا تنمو على الضعف ولا تعرف الرحمة.

وسارت الفلسفة ما إلى الأمام، ولكنها لم تستطع بعد أن تفرض على الأمم أي مثل عال قادر على فتنها، و إذ كانت الأوهام أمر ضروريا للأمم فإنها تسير من تلقاء نفسها إلى فارس البيان الذي يعرضها عليها كما تسير الحشرة إلى النور، أجل، إن الضلال، لا الحقيقة، هو أعظم عامل في تطور الأمم، و إذا كانت الاشتراكية تزيد قوة في الوقت الحاضر فلأنها لا تزال تنطوي على الوهم الحي الوحيد، ولا تعوق البراهين العلمية سيرها التدريجي أبدا، وتجد قوتها في الدفاع عنها من قبل أناس بلغوا من جهل حقائق الأمور ما يجرؤون معه على الاندفاع في وعد الناس بالسعادة، واليوم يسود الوهم جميع أنقاض الماضي المركومة، والمستقبل للوهم، ولم يحدث أن تعطشت الجماعات إلى الحقائق قط، والجماعات تولى البديهيات التي تكرهها ظهرها مفضلة تأليه الضلال إذا ما أغواها، ومن

يعرف أن يلقى الوهم فيها يستطع أن يكون سيدها بسهولة، ومن يحاول تبديد وهمها يذهب ضحيتها على الدوام .

التجربة

التجربة هي الوسيلة الفعالة الوحيدة تقريبًا لتقرير حقيقة في روح الجماعات وللقضاء على ما غدا خطرًا من الأوهام، والتجربة هي ما يجب أن يحقق على مقياس واسع مع تكرارها في الغالب، والتجربة التي يقوم بها

جيل لا تنفع الجيل القادم على العموم، ولهذا لا تصلح الحوادث التاريخية للاستشهاد بها، وفائدتها الوحيدة هي في إثبات ما يجب من تكرار الحوادث بين جيل وجيل لممارسة شيء، من النفوذ والنجاح في زعزعة خطأ متأصل.

ومما لا مراء فيه أن مؤرخي المستقبل سيعدون القرن الحالي والقرن الماضى دورة التجارب الطريفة، ولا تجد دورة أبصر تجارب كثيرة كهذا الدور.

والثورة الفرنسية هي أعظم تلك التجارب خطرا، فقد اقتضى الدليل على أن المجتمع لا يجد بأثره وفق ما يشير به العقل الصرف قتل ملايين من البشر وقلب جميع أوربة في عشرين سنة، وقد اقتضى الدليل التجريبي على أن القياصرة يكلفون الأمم التي تهتف لهم عالية حدوث تجربتين مهلكتين في خمسين سنة، و يلوح أن تينك التجربتين غير مقنعتين بما فيه الكفاية مع وضوحهما، مع أن الأولى أوجبت هلاك ثلاثة ملايين من الرجال وغزو الأجنبى للبلاد، ومع أن الثانية أوجبت اقتطاع ولاية وضرورة وجود جيوش دائمة، وقد كادت تجربة ثالثة تقع منذ سنين قليلة، ولا بد من حدوثها ذات يوم، وقد وجب علينا فيما مضى أن نخوض غمار حرب طاحنة مثقلة لكاهل ثروتنا حتى شل بأن الجيش الألماني ليس ضربا من الحرس الوطني الذي لاخوف منه[14] كما كان يذكر قبل سنة ١٨٧٠، ولا مناص من القيام

[14] كان الرأي العام في ذلك قائما على اجتماع متباين الأمور التي عرضت تركيبها فيما تقدم، فيما أن حرسنا الوطني السابق كان مؤلفة من الباعة المسالمين الذين لا أثر النظام فيهم فلا يبالى بهم لهذا السبب كان مثل ذلك الاسم يثير مثل هذا الخيال فيدل على ما لا نخشى، ويقاسم الزعماء جموعهم خطأها وفق ما ينفق للرأي العام في الغالب، ومن ذلك أن القطب السياسي، مسيو تيار، الذي كان يتبع رأى الجماعات كثيرة ألتقي في مجلس النواب، في 31 من ديسمبر سنة ١٨٦٧، خطبة قال فيها موكدة

بتجارب مضرة ليعرف أن نظام الحماية يؤدي إلى خراب الأمم القائلة به، ومن الممكن إيرلد ما لا حصر له من الأمثلة التي هي من هذا القبيل.

العقل

كان يمكننا أن نستغني عن ذكر العقل بين العوامل القادرة على التأثير في روح الجماعات لو لم يكن من الضروري أن تذكر قيمة العقل السلبية .

لقد بينا أنه لا يؤثر في الجماعات بالمعقولات، وأن الجماعات لا تفقه ما غلظ من الخواطر المتنادية، والجماعات هي التي يخاطب الخطباء مشاعرها، لا عقلها أبدا ،والجماعات هي التي لا تأثير لسنن المنطق العقلى فيها15، ومن يرغب في إقناع الجماعات فعليه أن يلتفت إلى ما يثيرها من المشاعر، وأن يتظاهر بمشاطرتها هذه المشاعر، وأن يحاول تعديل هذه المشاعر باثارة بعض الصور التلقينية وفق تناديات بسيطة، وأن يعرف كيف يرجع

إنه ليس لدى بروسيا غير حرس وطنى مشابه للحرس الذي كان عندنا، وإنه لا أهمية له لهذا السبب، وذلك فضلا عن جيش عامل لبروسيا يعدل جيشنا جنودا تقريبا، فهذه المزاعم هي في صحتها كبصائر هذا القطب السياسي في ضعف مستقبل الخطوط الحديدية .

15 ترجع ملاحظاتي الأولى في فن التأثير في الجماعات وفي ضعف قواعد المناطق في هذا الموضوع إلى زمن حصار باريس، إلى اليوم الذي رأيت فيه سوق الماريشال في ،. إلى اللوفر حيث كانت الحكومة، وذلك من قبل جماعة هائجة تزعم أن الماريشال المشار إليه بوغت و هو يأخذ رسم الحصون ليبيعها من البروسيين، ويخرج أحد أعضاء الحكومة الخطيب الشهير ج . ب.. ليخطب في الجماعة التي تطالب بقتل الموقوف حالا، وأتوقع أن يثبت الخطيب فساد التهمة بقوله إن الماريشال المتهم هو من مهندسى تلك الحصون التي يباع رسمها لدى جميع باعة الكتب، غير أنني بهت وقد كنت شابا إذ أتت الخطبة على غير ما انتظرت، إذ تقدم الخطيب إلى المتهم وقال بصوت عال : "سيأخذ العدل مجراه بلا هوادة، فدعوا حكومة الدفاع الوطنى تتم تحقيقها، وسنسجن المتهم في تلك الأثناء"، هنالك هدأ ثائر الجماعة بهذه المراضاة الظاهرة فتفرقت، فلم يمض ربع ساعة حتى كان الماريشال في منزله، وقد كانت الجماعة الهائجة تمزق الماريشال إربا إربا لو التجأ محامية إلى الأدلة المنطقية التي كنت أظن، وأنا الشاب آنئذ، أنها تكون مقنعة لو خاطب الجماعة بها!

القهقرى عند الضرورة، وأن يتنبأ في كل ثانية بما يولد من المشاعر، وضرورة تبديله للهجته بحسب وحى الساعة التي يتكلمفيها تحكم بضعف كل خطبة تدرس و تهيأ مقدما، فالخطيب الذي يساير فكره، لا سامعيه، يخسر كل نفوذ لهذا السبب.

ولا يستطيع رجال المنطق الذين تعودوا البراهين المتسلسلة الوثيقة أن يعدلوا عن طراز الإقناع هذا حينما يخاطبون الجماعات، وهم يحارون عندما يرون عدم تأثير أدلتهم على الدوام، قال أحد المناطقة : « إن النتائج الرياضية المعتادة القائمة على القياس المنطقي، أي على اتحاد النظائر، هي أمور لازمة ... واللزوم يستوجب الموافقة حتى من الجسم غير العضوى لو كان هذا الجسم قادرًا على تتبع اتحاد النظائر »، ذلك أمر لاريب فيه، غير أن الجماعة ليست أكثر استعدادا من الجسم غير العضوي لتتبع ذلك الاتحاد ولا للاستماع إليه، فحاولوا أنتقنعوا بالبرهان ذوي النفوس الابتدائية من همج وصبيان مثلًا لتروا ضعف قيمة طراز البرهنة لهذا.

ولا احتياج إلى الهبوط إلى الفطريين لتحقيق عجز البراهين العقلية عن معارضة المشاعر، فيكفي لتبين ذلك أن ننعم النظر في استعصاء الخرافات الدينية عدة قرون مع مناقضتها لأبسط قواعد المنطق، فقد كنت تلك الخرافات أكثر العباقرة بصيرة تحت أحكامها مدة ألف سنة تقريبا، وما كان ليجادل في صحتها إلا في الأزمنة الحديثة فقط، وعلى ما كان من كثرة ذوي البصائر في القرون الوسطى وفي عصر النهضة لم تجد فيهما واحد دلَّه

البرهان على ما في تلك الخرافات من النواحي الصبيانية فيشك ولو قليلا في مساوئ الشيطان أو في ضرورة حرق السحرة .

وهل يؤسف على أن العقل ليس دليل الجماعات ؟ لا تجرؤ على القول بذلك، ومما لا ريب فيه أن العقل البشري لم يكن ليوفق لاجتذاب الإنسان إلى سبل الحضارة بمثل النشاط والإقدام اللذين أوجبتهما فيه أوهامه، و إذ كانت هذه الأوهام وليدة اللاشعور الذي يقودنا فإنها ضرورية على الراجح، ويحمل كل عرق في مزاجه النفسي سنن مصايره، ومن المحتمل أنه يخضع لهذه السنن بغريزة مقدرة حتى في أشد اندفاعاته بعد من التعقل في الظاهر، ومما يلوح أحيانا أن الأم تنقاد لقوى خفية مشابهة للقوى التي تحمل حبة البلوط على التحول إلى سنديانة أو التي تحمل النجم المذنب على اتباع طريقه.

وما يمكن أن نستدل عليه من قليل من هذه القوى فيجب أن يبحث عنه في السير العام لتطور إحدى الأمم، لا في الحوادث المنفردة التي يلوح ظهور هذا التطور منها في بعض الأحيان، ولو لم ننظر إلى غير هذه الحوادث المنفردة لبدا لنا أن التاريخ تابع لمصادفات مخالفة للصواب، فيما لا يصدقه العقل أن نجارة جاهلا من بلاد الجليل استطاع أن يكون في ألفي سنة إلهًا قادرًا على كل شيء فتقام باسمه أهم الحضارات، ومما لا يصدقه العقل أيضا أن تخرج بضع عصابات عربية من صحاريها فتستطيع أن تفتح معظم العالم اليوناني الروماني القديم وأن تقيم دولة أعظم من دولة الإسكندر،

ومما لا يصدقه العقل كذلك أن يوفق ضابط يدفعية صغير لسيادة طائفة من الأمم والملوك في أوربة المسنة الكثيرة المراتب .

إذن، نترك العقل للفلاسفة، وذلك على ألا نطالبه كثيرا بالتدخل في ڂكم الناس، فلم تتولد بالعقل، بل خلافًا للعقل في الغالب، مشاعر كالشرف و إنكار الذات والايمان الديني وحب المجد والوطن، تلك المشاعر التي ظللت أعظم محرك لجميع الحضارات حتى الآن .

الفصل الثالث زعماء الجماعات وطرقهم في الإقناع

زعماء الجماعات- احتياج الجماعة الغريزي إلى قائد تطيعه- روح الزعماء- هؤلاء الزعماء هم القادرون وحدهم على إيجاد إيمان وعلى وضع نظام للجماعات- استبداد الزعماء القسري- تقسيم الزعماء- شأن الإرادة وسائل العمل لدى الزعماء- التوكيد والتكرار والعدوى- شأن كل واحد من هذه العوامل المختلفة- كيف تسري العدوى من طبقات المجتمع الدنيا إلى طبقاته العليا- لا يلبث الرأي الشعبي أن ينقلب إلى رأي عام

النفوذ- تعريف النفوذ وتقسيمه- النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصي- أمثلة مختلفة- كيف يزول النفوذ

نعرف الآن مزاج الجماعات النفسي، ونعرف أيضًا أي العوامل تؤثر في روحها، فبقي علينا أن نبحث في كيفية تطبيق هذه العوامل وفي من يمكنه أن يحسن استعمالها.

زعماء الجماعات

إذا اجتمع عدد من ذوات الحياة سواء أقطيع حيوانات كان أم جماعة من الناس، جعل بالغريزة تحت سلطان رئيس، أي زعيم.

ويمثل الزعيم في الجماعات البشرية دورًا عظيمًا، وتعد إردته نواة تتكون حولها وتتحد، وليست الجماعة إلا قطيعًا لا غنية له عن راع.

ويكون الزعيم في البداءة وفي الغالب مقودًا نوَّمه الفكر الذي يصبح رسوله بعدئذٍ، ويستحوذ هذا الفكر عليه فيتوارى كل فكرٍ غيره فيبدو كل رأي معاكسٍ له خطأً وخرافةً، وذلك كما وقع لروبسبير الذي نومته أفكاره الوهمية فاتخذ لنشرها وسائل محاكم التفتيش.

وليس الزعماء رجال فكر في الغالب، بل هم من رجال العمل، وهم قليلو الحذر، وهم لا يكونون حذرين لما يؤدى إليه الحذر من الشك فإلى السكون على العموم، وهم يخرجون على الخصوص من بين ضعاف الأعصاب الهائجين المتهوسين الذين هم على شفير الجنون، فلا ينفع أى برهان منطقي أمام اعتقادهم مهما كان فساد الفكر الذي يدافعون عنه أو الهدف الذي يسعون إليه، ولا ينشأ عن الازدراء والاضطهادات غير إثارتهم أكثر من قبل، وهم يضحون بالأسرة وبكل مصلحة شخصية لهم، حتى إنهم يفقدون غريزة المحافظة على النفس فلا يبتغون أجرة غير الشهادة في الغالب، وما في إيمانهم من حرارة فيمنح كلامهم قوة تلقينية عظيمة، والجماعة تصغي دوما إلى الرجل ذي الإرادة القوية، والأفراد في الجماعة يخسرون كل إرادة فيتوجهون بغريزتهم إلى من يملكها .

والزعماء وجدوا في الأمم على الدوام، غير أنهم ليسوا جميعا من ذوي العقائد القوية التي تجعلهم من الرسل، غير أنهم في الغالب من ذوي البيان الدقيق الذين لا يتبعون سوى مآربهم الشخصية فتراهم يقومون باقناع ذوى الغرائز المنحطة متملقين إياهم، فيظل ما يمارسونه من نفوذ موقتًا على

الدوام، وما اتفق لكبار المؤمنين الذين أثاروا روح الجماعات، كبطرس الراهب ولوثر وسافونارول ورجال الثورة الفرنسية، من سحر النفوس ليتم إلا بعد أن خضعوا لمعتقد، فهنالك استطاعوا أن يوجدوا في النفوس تلك القوة الهائلة، ذلك الإيمان الذي يجعل الإنسان عبدا لخياله .

ويتجلى شأن أعاظم الزعماء على الخصوص في إيجاد ايمان فعال بعمل أو بشخص أو بفكر سواء أكان هذا الإيمان دينيا أم سياسيا أم اجتماعيا، وكان الإيمان دوما من أهم جميع القوى التي تتصرف فيها البشرية، ومن الصواب أن عزا الإنجيل إلى الإيمان قدرة رفع الجبال، ويعنى منح الإنسان إيمانًا جعل قوته عشرة أمثالها، ولم تحقق حوادث التاريخ العظيمة في الغالب إلا من قبل مؤمنين مبهمين ليس عندهم سوى الإيمان، ولم تقم الديانات التي سادت الدنيا، ولم تقم الدول الواسعة التي امتد سلطانها على جميع الأرض، بالأدباء والفلاسفة، ولا بالملاحدة على الخصوص .

بيد أن أمثلة كتلك تطبق على أعاظم الزعماء، وهؤلاء الزعماء هم من القلة ما يستهل به على التاريخ إحصاؤهم، وهؤلاء الزعماء هم رأس سلسلة متصلة تتدلى من المتصرف في الرجال إلى العامل الذي يسحر رفقاءه ببطء في فندق دخن، وذلك بأن يلوك بلا انقطاع ما لا يفقه من صيغ قليلة يجب أن يؤدى تطبيقها، كما يزغم، إلى تحقيق أكيد لجميع الأحلام والآمال .

والمرء غير المنفرد في كل بيئة اجتماعية مهما علت أو دنيت لا يُعتم أن يخضع الزعيم، وأكثر الأفراد في الجماعات الشعبية على الخصوص، إذ ليسوا

ذوى فكر واضح معقول خارج دائرة اختصاصهم، يعجزون عن قيادة أنفسهم، والزعيم هو الذي يقودهم، والزعيم قد يستبدل به غيره، ولكن ليس بدرجة الكفاية، وذلك بتلك النشرات الدورية التي تصنع آراء تقرائها و تصوغ لهم جملًا تغنيهم عن التأمل ..

وسلطان الزعماء استبدادي إلى الغاية، ولا يفرض هذا السلطان إلا بهذا الاستبداد، وما لوحظ درجة السهولة التي يطاعون بها من غير أن تكون لديهم مع ذلك أية وسيلة يستند إليها سلطانهم في أشد طبقات العمال شغبًا، والزعماء هم الذين يحددون ساعات العمل ومقدار الأجور و يقررون الإضرابات، ويعينون ساعة البدء بها وساعة انتهائها .

واليوم يهدف الزعماء إلى قيامهم بالتدريج مقام السلطات العامة كلما زاد الجدال في هذه السلطات وضعف شأنها، وأولئك السادة الجدد يتفق لهم بطغيانهم من إطاعة الجماعات ما لا تناله أية حكومة كانت، وإذا حدث حادث اختفى به الزعيم فلم يستبدل به غيره من فوره انقلبت الجماعة إلى زمرة عاطلة من الارتباط والمقاومة، ومن ذلك أن أضرب عمال الباصات بباريس عن العمل، فكفي لإنهاء هذا الإضراب وقف الزعيمين اللذين كانا يديرانه، فالاحتياج إلى الخضوع، لا إلى الحرية، هو الذي يسود روح الجماعات على الدوام، وما في الجماعات من تعطش إلى الإطاعة يجعلها تنقاد بغريزتها لمن يعلن أنه سيدها .

ويمكننا أن نأتى بتقسيم بارز في الزعماء فنقول : من الزعماء أناس" نشيطون ذوو عزيمة قوية، لكنها مؤقتة، ومن الزعماء فريق آخر أقل عددا وذو إرادة قوية دائمة معا، والفريق الأول يبدو عنيفًا باسلًا مقدامًا، وهذا الفريق ينفع على الخصوص في توجيه أمر دبر وفي سوق الجماعات مع وجود الخطر وفي تحويل جنود الأمس إلى أبطال، ومن هذا الفريق نای وموورا في العهد الإمبراطوري الأول، ومنه غار يبالدي في أيامنا، هذا المغامر العاطل من المواهب، ولكن مع نشاط استطاع أن يستولى به هو ونفر من الرجال على مملكة نابولي السابقة على الرغم من الجيش المدرب الذي كان يدافع عنها .

غير أن نشاط مثل أولئك الزعماء، إذا كان قويا، هو موقت، فلا يدوم أكثر من دوام الدافع الذي أوجبه، فإذا ما عاد الأبطال الذين تأجج فيهم إلى مجرى الحياة العادية أظهروا من الضعف ما يثير الحيرة، شأن من ذكرتهم منذ هنيهة، فبدواعاجزين عن التأمل وعن قيادة أنفسهم في أبسط الأحوال بعد أن عرفوا أن يقودوا الآخرين، وهؤلاء الزعماء لا يقدرون على ممارسة عملهم بالحقيقة إلا بعد أن يكونوا مقودين محرضين بلا انقطاع شاعرين على الدوام بوجود رجل أو فكر فوقهم بعين لخطة مرسومة من قبل .

ويتألف الفريق الثاني من زعماء ذوي عزيمة مستمرة، فيمارس هذا الفريق نفوذا أعظم من نفوذ ذلك الفريق بمراحل، ومن هذا الفريق تعد مؤسسي الأديان أوجليل الأعمال الحقيقيين كالقديس بولس ومحمد

وكريستوف كولونب ودولسيس، والدنيا لهؤلاء على الدوام سواء أمن الأذكياء كانوا أم من الأغبياء، وما عند هؤلاء من إرادة ثابتة فملكة نادرة إلى الغاية قوية إلى الغاية يخضع لها كل شيء، وعلى الدوام لا يقدر بما فيه الكفاية ما تقدر عليه الإرادة المستمرة القوية، وهذه الإرادة لا يقف شيء أمامها حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال.

وأحدث مثال على ذلك هو ما كان من أمر ذلك المهندس الشهير الذي فصل قارتين وحقق عملا حاوله كثير من الملوك منذ ثلاثة آلاف سنة على غير جدوي، أجل، إنه أخفق بعد ذلك في عمل مماثل، غير أن ذلك وقع حين أدركته الشيبة فانطفا أمامها كل شيء حتى الإرادة .

وعلى من يرغب في إثبات قوة الإرادة أن يعرض بالتفصيل تاريخ المصاعب التي ذللت حين فتح قناة السويس، ومع ذلك أخص شاه العيان الدكتور كزاليس في أسطر قليلة مؤثرة أمر ذلك العمل الجليل نقلا عن صاحبه الخالد فقال : « كان دولسيس يقص علينا حكاية القناة يوما بعد يوم وحادثا بعد حادث، فيخبرنا بما كان عليه أن يوطئه و بالمستحيل الذي جعله ممكنا، و بالآتي من مقاومات وتحزبات ومشقات وخيبات، ولكن من غير أن ينهنهه ذلك عن عمله و يقضى على أمله، وكان يذكر إنكلترة وهي تناهضه وهي تهاجمه بلا إمهال، وكان يذكر مصر وفرنسة وها مترددتان، وكان يذكر القنصل الفرنسي وهو يعارض الأعمال الأولى أكثر من غيره في يحجم مع معارضته عن أخذ العمال بالعطش فمنع عنهم الماء

الفرات، وكان يذكر ما لقيه من مخالفة وزارة البحرية والمهندسين وذوى الجد والتجربة والعلم من الرجال فكان هؤلاء جميعهم قانعين بحدوث الكارثة حاسبين لها منبئين بوقوعها في يوم معين وساعة معينة كما ينبأ بالخسوف والكسوف».

وإن الكتاب الذي يخبرنا بحياة جميع أولئك الزعماء العظماء لا يشتمل على غير قليل من الأسماء، ولكن هذه الأسماء كانت على رأس أهم حوادث الحضارة والتاريخ .

وسائل العمل لدى الزعماء-

التوكيد والتكرار والعدوى

إذا ما أريد سوق جماعة وحملها ذات ساعة على اقتراف عمل ما، كحرق قصر والاستاتة في الدفاع عن مِتراس، وجب أن يوثر فيها بتلقينات سريعة، والمثال أشد هذه التلقينات فعلا، على أنه لابد من أن تكون الجماعة مستعدة للتأثر بفعل بعض الأحوال، ومن أن يكون الراغب في سوقها متصف بصفة النفوذ التي سأبحث فيها بعد قليل.

وإذا ما أريد أن يدخل على مهل بعض الأفكار والمعتقدات إلى روح الجماعات، كالنظريات الاجتماعية الحديثة مثلا، وجد اختلاف أساليب الزعماء عما تقدم، والزعماء يرجعون إلى الطرق الثلاث الآتية على الخصوص، وهي: التوكيد والتكرار والعدوى، ولهذه الطرق تأثير بطيء، ولكن نتائجها دائمة .

والتوكيد المحض البسيط الخالي من كل تعقل وكل دليل هو وسيلة صادقة لبث الفكر في روح الجماعات، والتوكيد كلما كان موجزة عاطلا من الدليل والبرهان كان عظم السلطان، والتوكيد البسيط هو ما استندت إليه الكتب الدينية والقوانين في جميع الأجيال على الدوام، ويعرف قيمة التوكيد رجال الدولة الذين يدعون إلى الدفاع عن أية قضية سياسية ورجال الصناعة الذين يذيعون أمر إنتاجاتهم بالإعلان .

ومع ذلك لا يكون التوكيد ذا نفوذ حقيقي إلا إذا دام تكراره بعبارات واحدة ما أمكن، وكان ناپليون يقول إنه لا وجه جدا للبيان سوى التكرار، والأمر إذا ما وگد انتهى بالتكرار إلى الرسوخ في النفوس على أنه حقيقة ثابتة .

وتأثير التكرار في الجماعات "يفهم جيدا عند النظر إلى سلطانه الكبير على ذوي البصائر، والأمر إذا كرر لم يلبث في الحقيقة أن يستقر بمناطق اللاشعور العميقة حيث تنضج عوامل سرنا، ونحن إذ ننسي مصدر الزعم المكرر بعد انقضاء بعض الزمن فإننا نعتم أن نؤمن به، وبهذا تفسر قوة الإعلان العجيبة، فإذا ما قرأنا مئة مرة أن الشكولاتة (س) هي أطيب نوع الشكولاتة خُيل إلينا أننا سمعنا حديثا متواترًا عنها فلا ننشب أن نعتقد صحة النبأ، وإذا ما اعتقدنا بألف شهادة أن الطحين (ى) قد شفي أكابر القوم من أشد الأمراض استعصاء لم نتردد في تجربته عندما نصاب بمرض من ذلك النوع، وإذا كرر في جريدة واحدة أن (أ) تذل وأن (ب) رجل

شريف فقرأنا ذلك آمنا به في نهاية الأمر على ألا نكون من قراء جريدة أخرى ذات رأي معاكس، وذلك لتهادم الوصفين، فلا يَفُلُّ التوكيد والتكرار إلا التوكيد والتكرار.

والتوكيد إذا ما كُرِّر بما فيه الكفاية مع إجماع عليه، وذلك كما يحدث في بعض المشاريع المالية التي تشتري كل معونة، تكون مايسمى بسريان الرأي فقام جهاز العدوى القوى بعمله، وفي الجماعات يكون الأفكار والمشاعر والعواطف والمعتقدات قدرة سارية شديدة شدة عدوى الجراثيم، وهذه الظاهرة تشاهد في الحيوانات نفسها عندما تجتمع، ومن هذا أن صهيل الفرس في إصطبل تقلده خيل ذلك الإصطبل حالا، ومن ذلك أن ثغاء شاةٍ أو جفلها يسرى من فوره إلى جميع القطيع، و بعدوى العواطف تفسر فجاءة الذعر، و بالعدوى تنتشر أيضا اختلالات الدماغ كالجنون مثلا، وليست بخافية كثرة الجنون لدى أطباء المجانين، ومما اين گر فنون الجنون التي تنتقل من الإنسان إلى الحيوان كالاضطرابات العصبية المصحوبة بخفقان في القلب ورعشةٍ في الأطراف.

ولا تقتضي العدوى وجود الأشخاص في مكان واحد، فقد تسرى العدوى عن بعد بفعل بعض الحوادث الموجهة للنفوس إلى معنى واحد فتمنحها ماهو خاص بالجماعات من الصفات، ولا سيما عندما تكون النفوس معدة بفعل العوامل البعيدة التي بحثت فيها آنفا، ومن الأمثلة على ذلك انفجار

سنة **1848** الثوري الذي بدأ في باريس فلم ينشب أن امتد إلى قسم كبير من أوربة في كثير من العروش[16].

وليس التقليد الذي يعزى إليه كثير من التأثير في الحوادث الاجتماعية إلا نتيجة بسيطة للعدوى في الحقيقة، وإنني إذ بَيَّنْت شأن التقليد في كتاب آخر فإنني أكتفي بنقل ما قلته منذ زمن طويل فشرحه كتاب آخرون بعد ذلك :

«الإنسان شبيه بالحيوان، فهو قد بحكم الطبيعة، والتقليد في الإنسان وليد الاحتياج، وذلك على أن يكون هذا التقليد سهلا، ومن ذلك الاحتياج ينشأ نفوذ الطراز، ومن ذا الذي يقدر على الخلاص من سلطان الطراز سواء أكان الأمر رأيًا أم فكرًا أم مظهرًا أدبيًا أم زيًّا ؟ وبالأمثلة، لا بالأدلة، تُقاد الجماعات، وفي كل دور يطبع عدد قليل من الناس أثرهم فيقلده الجمهور غير الشاعر، ومع ذلك لا ينبغي لأولئك الناس أن يبتعدوا كثيرا عن الأفكار المألوفة لما يوجبه خلاف هذا من عُسر تقليده وضعف نفوذهم، ولذا لا ترى للأشخاص الذين هم أسمي من عصره أي تأثير فيه فتبعد الشِّقَّة بينهما، ولذا ترى الأوربيين ذوي نفوذ هزيل في شعوب الشرق مع ما في حضارتهم من منافع .

«وما الماضي والتقليد من تأثير مضاعف متبادل يؤدي في نهاية الأمر إلى تماثل جميع رجال البلد الواحد في الدور الواحد، حتى الذين يلوح أنهم في

[16] انظر إلى كتبي الأخيرة: روح السياسة والآراء والمعتقدات والثورة الفرنسية.

مَعْزل من ذلك أكثر من سواهم كالفلاسفة والعلماء والأدباء، فترى على أفكاره وأسلوبهم صِبغة الأسرة التي يُعْرف بها زمن ظهورهم حالا، ولا احتياج إلى طول الحديث مع شخص لتعرف جيدا مطالعاته وأعماله المعتادة والبيئة التي يعيش فيها17 ».

والعدوى هي من القوة ما تقترض به على الناس طرزًا للشعور فضلا عن بعض الآراء، و بالعدوى از دريت رواية تنهاوزر ذات زمن، ثم أعجب بها بعد بضع سنين أولئك الذين نفروا منها أكثر من غيره .

والآراء والمعتقدات تنتشر بالعدوى، وقلما تنتشر بالبرهان، و بالتوكيد والتكرار والعدوى تولدت في الحانة مبادئ العمال الراهنة، ولم تظهر معتقدات الجماعات في جميع الأجيال على غير هذا الوجه، ومن الصواب أن شبه رينانُ مؤسسي النصرانية الأولين « بالعمال الاشتراكيين الذين ينشرون أفكارهم في الحانة بعد الحانة »، وكان فولتير قد لاحظ في موضوع الدين النصراني " أنه لم يدن به في أكثر من مئة سنة غير أسفل الناس" .

وفي الأمثلة المائلة إما تقدم تسرى العدوى إلى طبقات المجتمع العليا بعد أن تجرى حكمها في الطبقات الشعبية، وعلى هذا الوجه تبدأ المذاهب الاشتراكية في أيامنا باجتذاب من يكونون ضحاياها الأولين على الخصوص، فتزول المصلحة الشخصية نفسها أمام عامل العدوى .

[17] انظر إلى كتاب "الإنسان والمجتمعات" لمؤلفه غوستاف لوبن، جزء 2، ص 116، سنة 1881

من أجل ذلك لا يلبث كل رأي يغدو شعبيا أن يفرض على الطبقات الاجتماعية العليا مهما كان الرأي الفائز فاسدة، وما كان من رد فعل الطبقات الاجتماعية السفلى في الطبقات العليا هو من الطرافة كاشتقاق معتقدات الجماعة دوما من فكر رفيع يظا في الغالب غير مؤثر في البيئة التي ولد فيها، وبيان الأمر هو أن الزعماء ينتحلون هذا الفكر الرفيع بعد أن يتمكن منهم، وهم يشوهونه فيكونون شيعة تشوهه مجددا، ثم تنشره هذه الشيعة مشوها في الجماعات، و بعد أن يصبح ذلك الفكر حقيقة شعبية يصعد إلى مصدره كما يلوح، وهنالك يؤثر في الطبقات العليا لدى الأمة، وهكذا يكون العقل مسيرًا للعالم في نهاية الأمر، ولكنه يسيره من أمد بعيد جدا، أي إن الفلاسفة الذين أوجدوا الأفكار يكونون قد غدوا رُفاتًا منذ زمن طويل عندما يكتب النصر لفكره في نهاية الأمر وفق ذلك الجهاز.

النفوذ

إذا كنت ترى للتوكيد والتكرار والعدوى سلطانا عظما فلأن هذه العوامل لا تلبث أن تكتسب تلك القوة الخفية المسماة بالنفوذ.

وكل شيء في سيطرة في العالم، أفكارًا كان أو رجالًا، فرض على الخصوص بقوة قاهرة يعبر عنها بالنفوذ، ونحن ندرك ما لهذه الكلمة من معنى، ولكنها تطبق على وجه مختلف إلى الغاية فلا يسهل تعريفها، وقد ينطوى النفوذ على بعض المشاعر كالاعجاب والخوف، وقد تكون هذه المشاعر أصلا للنفوذ، وقد

يكون النفوذ بغير هذه المشاعر، وهنالك من ماتوا فظلوا ذوي نفوذ عظيم مع أننا عدنا لا نخشاهم كالإسكندر وقيصر ومحمد و بدهة (بوذا)، وتبصر من ناحية أخرى بعض التصورات التي لا نقول بها كالآلهة المضادة للذوق في معابد الهند القائمة تحت الأرض، وتبدو هذه التصورات ذات نفوذ عظيم مع ذلك .

والحق أن النفوذ ضرب من الرقية يؤثر بها في نفوسنا شخص أو عمل أو مذهب، وهذه الرقية تبطل ملكة النقد فينا وتملأ نفوسنا عجبا واحتراما، وما يثار إذ ذاك من الشاعر فيما لا يمكن شرحه، شأن جميع المشاعر، ومن المحتمل أن يكون هذا ضربا من التلقين الذي يعانيه شخص منوم، والنفوذ أقوى عامل لكل سلطان، وما كان للآلهة والملوك والنساء سيطرة بغيره .

ويمكن أنواع النفوذ إلى قسمين أساسيين : النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصي، والنفود المكتسب هو الذي يصدر عن الاسم والثراء والشهرة، والنفوذ المكتسب قد يكون مستقلا عن النفوذ الشخصى، والنفوذ الشخصي أمر فردى يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة أحيانا أو يتقوى بها، ولكن مع إمكان استقلاله عنها استقلالا تاما .

والنقود المكتسب أو المصنوع هو أكثر أنواع النفوذ انتشارا، ومن ذلك أن شخصا إذا غدا صاحب منصب أو ثروة قال بعض الألقاب فصار ذا نفوذ مهما كان عاطلا من أية قيمة ذاتية، و يتمتع الجندي اللابس بزة عسكرية

والقاضي الملابس حلة حمراء بنفوذ على الدوام، ومن الصواب أن أوصى بسكال بضرورة ارتداء القضاة حللًا وشعورًا مستعارة، ولولا هذه الأشياء لفقدوا قسما كبيرا من نفوذهم، حتى إن أشد الاشتراكيين غلظة تأخذه روعة عند رؤيته أميرًا أو مركيزًا، وألقاب كهذه تكفي لاختلاس ما يراد من تاجر[18].

والنفود الذي تكلمت عنه هو الذي يزاوله الأشخاص، ويمكن أن يوضع بجانبه ما يكون للآراء والآثار الأدبية أو الفنية أو ما إليها من النفوذ، وهذا النفوذ ناشئ عن التكرار المتراكم في الغالب، والتاريخ، وتاريخ الآداب والفنون على الخصوص، إذ كانا تكرارًا لأحكام لم يحاول مراقبتها أحد لم يلبث كل واحد أن يكرر ما تعلمه منهما في المدرسة، ومن الأسماء والأمور طائفة لا يجرؤ أحد أن يمسها، ومن ذلك أن القارى المصرى يلاقي مللًا عظيمًا لا شبهة فيه من مطالعة آثار أوميرس، فمن ذا الذي يجرؤ على التصريح بذلك ؟ ومن ذلك أن البارتنون أصبح الآن طللًا عاطلا من أية

---

[18] يشاهد تأثير الألقاب و الأوسمة والشارات في جماعات كل بلد، حتى في البلدان التي نمت مشاعر الاستقلال فيها نموا عظيمًا، وتراني أنفل عبارة طريفة من كتاب وضعه أحد السياح عن نفوذ بعض العلماء في إنكلترة وإليكها :

" أبصرت، غير مرة، ما يعتري أكثر الإنكليز عقلا من نشوة خاصة عند اجتماعهم بشريف إنكليري أو نظرهم إليه.

« والإنكليز يحبونه مقدمًا إذا ما ناسبت حاله مقامه فيحتملون عند المقابلة كل شيء منه مفتونين، والإنكليز تحمر وجوههم فرحًا إذا ما دنا منهم، وهو إذا ما خاطبهم أوجب فرحهم زيادة احمرارهم والتماع عيونهم التماعًا غير عادي، ويمكن أن يقال إن اللوردية في دم الإنكليز كالرقص عند الإسباني والموسيقى عند الألماني والثورة عند الفرنسي، وميل الإنكليز إلى الخيل وإلى شكسبير أقل منه إلى الشرفاء، وما لديهم من اعتراز بهما هو دون اعترازهم هؤلاء، وكتاب الشرف ذو رواج عظيم، و تجده في كل بد كما تجد التوراة مهما أغربت ،،

فائدة، غير أنه يتمتع بنفوذ يرى معه في موكب من الذكريات التاريخية، فأية النفوذ في أنه يحول دون رؤية الأمور كما هي وفي إبطال ملكات التميز فينا، والواقع أن الجماعات على الدوام، والأفراد في الغالب، تحتاج إلى آراء معدة سلفا، ونجاح هذه الآراء مستقلا عما فيها من حقيقة وخطأ، ويقوم هذا النجاح على النفوذ وحده .

والآن أنتقل إلى النفوذ الشخصي، وتتألف من هذا النفوذ، الذي يختلف بطبيعته عن النفوذ المصنوع أو المكتسب اختلافًا كبيرًا، ملكة مستقلة عن كل لقب وكل سلطان، وذلك أن للأشخاص الذين يتصفون به سحر منوم لجميع من يحيطون بهم و إن كانوا مساوين لهم، وهم يطاعون كما يطيع الحيوان الضارى مروضه مع قدرته على افتراس هذا المروض بسهولة .

وكان أعاظم قادة البشر، مثل بدهة وعيسى ومحمد وجان دارك و ناپليون، حائزين نفوذا من هذا النوع إلى أعلى درجة، وهم قد فرضوا أنفسهم على الآخرين بفضل هذا النفوذ على الخصوص، وتفرض الآلهة والأبطال والعقائد ولا يجادل فيها، وهي تزول إذا ما غدت موضع جدل .

وكان العظماء المشار إليهم يملكون قدرة ساحرة قبل أن يشتهروا، وهم لم يشتهروا إلا بهذه القدرة، ومن ذلك أن نابليون وهو فوق ذروة المجد كان يزاول نفوذا عظيم بفعل سلطانه، وأن نابليون كان متحليا مع ذلك بعض هذا النفوذ عند ما قبض على منصبه، و نابليون هذا، وقد كان جنرالا مجهول الأمر، أرسل عن حماية ليقود الحملة الإيطالية، فوجد نفسه بين جنرالات

عتاة وطنوا أنفسهم على استقباله بغلظة، وهو الدخيل الشاب الذي بعثت به إليهم حكومة الديركتوار (المديرين)، غير أن أولئك قد غلبوا على أمرهم بلا كلام ولا إشارة ولا وعيدٍ منذ الدقيقة الأولى، منذ اللقاء الأول، منذ أول نظرة ألقاها رجل المستقبل العظيم هذا، و إليك كيف يقص علينا تاين خبر ذلك اللقاء الطريف مستندة إلى مذكرات المعاصرين :

وصل إلى المعسكر العام قاد الفرقة، وكان منهم أوجيرو البطل القديم الفظ الفخور بطول قامته وشجاعته، وكان أولئك كثيري الامتعاض من ذلك الحديث النعمة الصغير الذي أرسل إليهم من باريس، ويبدو أوجيرو متشتمًا متمردًا مقدمًا تجاه ما وصف به بونا بارت، وينعت بونابارت بأنه صنيعة باراس، و بأنه قائد فانديمير (الشهر الأول من السنة الجمهورية)، و بأنه قائد شارع، و بأن له منظر الدُّبِّ لتفكيره منعزلًا على الدوام، و بأنه صغير الهيئة، و بأنه رياضى خيالى، و يدخلون إليه، ويبطئ بونابارت في الدخول عليهم، ثم يظهر متقلدًا سيفه، ويرتدي معطفه، وينبئهم بما عقد نيته عليه، ويلقي عليهم أوامره و يشير عليهم بالانصراف، و يظل أوجيرو صامتا، ولم يرجع إلى نفسه ولم يعد إلى وعيده المعتاد إلا بعد خروجه، و يعترف أوجيرو ومسِّينا بأن هذا القائد الصغير أفزعهما، و يعجز أوجيرو عن إدراك سر ما أخذ به عند أول نظرة » .

ويصبح نابليون عظيمًا، ويزيده مجده نفوذا فيساوى الآلهة لدى العابدين، وعن نابليون يقول الجنرال فندام، الثوري القديم الذي هو أشد عنفًا

وغلظة من أوجيرو، محدثًا المريشال أورنانو وما يصعدان مرقاة قصر التُّويلرى في سنة 1815 :

"إن لذلك الخبيث من السحر في نفسي ما لا أقدر على اكتناهه، حتى إنني، وأنا الذي لا يخشى الإله ولا الشيطان، أشعر بارتجاف كالطفل إذا ما دنوت منه فيستطيع أن يولجني في سم الخياط ليحرقني في النار 19".

ولنابليون سحرٌ كهذا في جميع من يقتربون منه، واسمع قول دافو مخبرًا باخلاصه و إخلاص ماره :

«لو أفضى الإمبراطور إلينا بقوله إن من مقتضيات سياستى أن أهدم باريس من غير أن يخرج منها أحد فرارًا من الهلاك لكتم ماره السر كما أرى، وذلك من غير أن يمنع نفسه من الإخلال به، فيخرج من باريس أسرته، وأما أنا فأخشى أن يكتشف الإمبراطور الحقيقة فتراني أترك زوجي وأولادي بباريس إذ ذاك » .

---

[19] كان الإمبراطور كثير الشعور بنفوذه فيعلم أن يزيده بمعاملته من حوله من الكبراء معاملة تليق بواس الدواب، ومن أولئك الكبراء كبير من مشاهير رجال العهد الذين خافقتهم أوربة كثيرة، وترى أحاديث ذلك العصر مشحونة بالأمور ذات المعني من هذه الناحية، ومن ذلك أن نابليون انتهر بونيو في مجلس شورى الدولة ذات يوم فنعته بالخادم غير المهذب، فلما كان هذا من الأثر ما كان دا نابليون من بو نيو وقال له : "والآن هل عاد إليك رشدك أيها الغبي ؟»، وهنالك انحنى بو نيو كثيرة وهو الطويل رئيس الطابلين، فرفع نابليون، وهو القصير، يده وأمسك بأذن بونيو الطويل « فكانت هذه علامة رضا مسكرة، كانت هذه حركة مألوفة من ذلك اليد عند تلطفه، كما قال بونبو ذلك، فأمثلة مثل تلك تدلنا على درجة ما يمكن أن يؤدي إليه النفوذ من الغلظة، وهي تفسر لنا عظم ازدراء ذلك الطاغية لمن هم حوله .

وتوضح لنا قوة السحر الرائعة تلك ذلك الرجوع العجيب من جزيرة إلبة وافتتاح فرنسة من قبل رجل وحيد، ومكانة هذا الرجل لجميع قوى ذلك البلد العظيم المنظمة، ذلك البلد الذي كان يظن نصبه من جبروت ذلك الرجل، فما كان على ذلك الرجل إلا أن ينظر إلى القادة الذين أرسلوا للقبض عليه حتى يخضعوا له بلا جدال، قال الجنرال الإنكليزي وسلي :

«نزل ناپليون من السفينة إلى فرنسة وحده تقريبا كهارب من جزيرة إلبة الصغيرة التي كانت مملكة له، فوفق في بضعة أسابيع لأن يقلب من غير سفك دماء نظام السلطة الفرنسية في عهد ملك شرعى، وهل كان لأحد من النفوذ الذاتي ما هو أكثر من ذلك إثارة للعجب ؟ وهل هنالك ما هو أدعى للذكر من النفوذ الذي كان له في تلك الحرب التي هي آخر حروبه، أي في الخلفاء مُكرِها إياهم على تتبع مبادراته التي كاد يسحقهم بها؟».

ونفوذ نابليون بقى بعد موته، وما انفك يَعْظم، و بفضل هذا النفوذ أصبح ابن أخٍ ناپليون غامض الأمر إمبراطورًا، واليوم حين نبصر بعث أسطورته ندرك درجة قدرة ذلك الظل حتى الآن، فاضطهد الرجال واقتلهم ملايين ملايين واجب إلى البلد غزوًا بعد غزوٍ تجد ذلك مباحًا لك إذا كنت ذا نفوذٍ كاف وحذقٍ لازمٍ الحفظ هذا النفوذ .

أجل، إني جئت هنا بمثال عزيز للنفوذ لا ريب، غير أن هذا المثال نافعٌ في بيان تكوين الديانات العظيمة والمذاهب الكبيرة والدول الواسعة، ولولا ما للنفوذ من السلطان على الجماعات الظل هذا التكوين أمر يتعذر إدراكه .

ولكن النفوذ لا يقوم على السلطان الشخص أو على المجد الحربي أو الهول الديني وحده، فقد يمكن النفوذ أن ينشأ عن مصادر أصغر شأنًا من تلك وأن يكون عظيم مع ذلك، ولنا من القرن الحاضر عدة أمثلة، ومن هذه الأمثلة ذلك المثال التي ستتناقله الأجيال، أي قصة الرجل الشهير الذي ذكرناه آنفا فقلنا إنه غير وجه الكرة الأرضية والعلاقات التجارية بين الأمم بفضله بين قارتين، ذلك الرجل الذي وفق في عمله بفضل عزيمته العظيمة و بما له من سحر لجميع من حوله، ذلك الرجل الذي لم يكن عليه سوى الظهور والكلام ثانية حتى يتغلب على ما يحيق به من معارضة إجماعية فيصبح المعارضون أصدقاء بفعل فتنه، وكان الإنكليز على الخصوص يناهضون خطة ذلك الرجل بعناد، فلما بدا في إنكلترة كفي ظهوره فيها لنيله جميع الأصوات، وهو لما مر من سوثنين بعد مدة دقت النواقيس إيذانًا بعبوره، وهو إذ قهر كل شيء من رجال وغير رجال وعاد لا يؤمن بالعوائق أراد أن يصنع في بناما مثل ما صنع في السويس بالوسائل نفسها، غير أن الإيمان الذي يزيل الجبال لا يزيلها إذا كانت عالية جدًا، فقد قاومت الجبال، وما كان من بلية فقد قضى على ما يكلل رأس ذلك البطل من المجد، ولنا في حياة ذلك البطل مثالٌ على الوجه الذي يعظم به النفوذ و يزول، وهو بعد أن ساوى أشهر رجال التاريخ عظمة أنزله قضاة

بلده إلى أسفل دركات المجرمين، وقد مرت جنازته منفردة بين عدم اكتراث الجماعات، وملوك الأجانب وحدهم هم الذين أحاطوا ذكراه بالتكريم20 .

بيد أن تلك الأمثلة المختلفة تنم على أقصى ما ينتهي إليه النفوذ، فعلى من يود أن يعرف روح النفوذ مفصلا أن يبحث في السلسلة من مؤسسي الديانات والدول إلى الشخص الذي يحاول أن يهر جيرانه بثوب جديد أو وسام.

وتجد بين طرفي تلك السلسلة وجوهًا للنفوذ في مختلف عناصر الحضارة كالعلوم والفنون والآداب وما إليها، وتجد أن النفوذ عنصر أساسي للإقناع، والإنسان أو الفكر أو الشيء إذا ما كان ذا نفوذ لا ينشب أن يقلد بالعدوى

---

[20] نظرت جريدة نوفرى برس الأجنبية التي تصدر في قينة إلى مصير دولسبس فانتهت إلى تأملات نفسية صائبة إلى الغاية فأنقلها لهذا السبب، قالت تلك الجريدة :

"لا تجد ما يدعو إلى الحيرة في خاتمة كرستوف كولونب المحزنة بعد أن حكم على فردينان دولسبس، فلو كان فردينان دو اساس مختلسًا لكان كل خيال نبيل جرمًا، ولو ظهر دولسيس في القرون الأولى لوضعت هذه القرون على رأسه تاجًا من الفخار ولسقته كأس رحيق بين الآلهة لما غير به وجه الأرض وأتي من الأعمال ما يكمل به الوجود، أجل، لقد خلد رئيس محكمة الاستئناف نفسه حكمه على فردينان دولسيس، وذلك لأن الشعوب تسأل، دومًا، عن اسم الرجل الذي لم يخش أن وما قدر عصره بوضعه خوذة المحكوم عليهم بالأشغال على رأس شيخ كانت حياته مجدًا لمعاصريه .

"ألا فليكفوا بعد اليوم عن الكلام في العدل الثابت حيث يسود الحقد القرطاسي على أعمال الإقدام العمليمة ،، ألا إن الأمم محتاجة إلى هؤلاء الرجال المقاديم المؤمنين بأنفسهم والمذللين لجميع العوائق غير ناظرين إلى أشخاصهم، ألا إنه لا حذر مع العبقرية، وبالحذر لا يمكن توسيع نطاق النشاط البشرى .

"... لقد ذاق دولبس خمرة النصر ومرارة الغرة، لقد أبصر السويس و بناما، وهنا يثور القلب على أدب الفوز، فلما وفق دولسبس لوصل بحرين حياه الأمراء والأقوام، واليوم، حين حمل عمله أمام صخر گوردیالر، عد لصًا عاديًا ... هنالك حرب بين طبقات المجتمع، وهنالك سخط من القرطاسيين والموظفين الذين ينتقمون بقانون العقوبات من كل من يود أن يسمو فوق الآخرين .. وترى المشترعين المعاصرين حيارى أمام ما يصدر عن العبقرية البشرية من الأفكار العالية، وترى الجمهور أقل ادرا كًا لها من أولئك، ومما يسهل على النائب العام أن يثبت أن ستانلى من القاتلين وأن دولسيس من الخادعين »

في الحال وأن يفرض على جيل بأسره طرزًا للشعور والتعبير عن الأفكار، على أن التقليد هو غير شعوري في الغالب، وهذا هو الذي يجعله تامًا، والمصورون المعاصرون حين يقتبسون الألوان الطامسة والأوضاع المتشددة لدى بعض القطريين لا يرتابون في مصدر وحيهم فيعزون ذلك إلى صفائهم مع أنه لولا بعث ذلك الشكل الفني من قبل أستاذٍ لاستمر الناس على رؤية نواحيه الساذجة المنحطة، و إذا نظرت إلى أولئك الذين ساروا على غرار مبتدع شهير فأغرقوا مصوراتهم بالظلال البنفسجية وجدتهم لم يروا في الطبيعة من البنفسج أكثر مما كانوا يرون منذ خمسين سنة، غير أنه كان لذلك المصور من النفوذ الكبير ما استطاع به أن يؤثر فيهم تأثير شخصيًا خاصًا فصدر عنهم ما علمت، ويسهل إيراد الأمثلة التي هي من هذا القبيل في كل عنصر من عناصر الحضارة .

ومما تقدم ترى إمكان دخول كثير من العوامل في تكوين النفوذ، والنجاح من أهم هذه العوامل على الدوام، فلا يجادل في الرجل الذي ينجح والفكر الذي يفرض لهذا السبب .

وعدم النجاح نذير زوال النفوذ دوما، والبطل الذي تهتف له الجماعة لا يعتم أن يصير عُرضة لإهانتها غداة نكبته، ورد الفعل يشتد بنسبة عظم النفوذ، وهنالك تعد الجماعة البطل الساقط يا لها فتنتقم من هذا الذي خضعت لسلطانه فعادت لا تعرفه، ومن ذلك أن روبسپير كان يضرب رقاب زملائه ورقاب كثير من معاصريه فينال بذلك نفوذا واسعا، فلما

خسر بعض الأصوات أضاع نفوذه من فوره فشيعته الجماعة إلى المقصلة لاعنة إياه بمثل اللعنة التي كانت تصبها على ضحاياه، فالمؤمنون يكسرون تماثيل آلهتهم السابقة بحراسة على الدوام .

والنفوذ الذي يذهب به الإخفاق يزول بغتة، وقد يبلى النفوذ بالجدال، ولكن هذا البلى يتم ببطء، وهذه الطريقة هي أقوم الطرق لاندثاره مع ذلك، والنفوذ الذي يجادل فيه لا يعود نفوذًا، والآلهة والرجال إذ كانت تعرف أن تحافظ على نفوذها زمنًا طويلًا لم تطق الجدال، ويجب على من يرغب أن يكون موضع إعجاب الجماعات أن يترفع عن منزلها في كل وقت .

الفصل الرابع جدود تقلب معتقدات الجماعة وآرائها

المعتقدات الثابتة- ثبات بعض المعتقدات العامة- هذه المعتقدات هي أدلاء الحضارة- صعوبة استئصالها- كيف يكون عدم التسامح فضيلة لدى الأمم- فساد المعتقدات العامة فلسفيًا لا يعوق انتشارها.

تقلب الآراء في الجماعات- تقلب الآراء التي لا تشتق من المعتقدات العامة- التقلبات الظاهرة في الأفكار والمعتقدات في أقل من قرن- الحدود الحقيقية لهذه التقلبات العناصر التي تتغير- زوال المعتقدات العامة في الوقت الحاضر، وإطراد الآراء في التقلب بفعل شدة انتشار الصحافة في أيامنا- كيف تميل آراء الجماعات إلى عدم الاكتراث للموضوعات الكلية- عجز الحكومات عن توجيه الرأي كما في الماضي- تفتت الآراء في الوقت الحاضر يحول دون طغيانها.

المعتقدات الثابتة

ترى بين الصفات التشريحية في الموجودات والصفات النفسية شبهًا وثيقًا، فتجد الصفات التشريحية بعض العناصر الثابتة، أو القليلة التغير، التي لابد من انقضاء أجيال جيولوجية لتحويلها، وتجد بجانب هذه الصفات الثابتة التي لا تبديل لها صفات أخرى كثيرة التقلب فبلغت البيئة والتربية

والبستنة من تبديلها ما تخفي معه صفاتها الأساسية على الناظر القليل التأمل.

وتلاحظ تلك الظاهرة في الصفات الخلقية أيضًا، فتجد بين عناصر العرق النفسية الثابتة عناصر متقلبة متحولة، وفي هذا سر ما نراه دومًا عند البحث في معتقدات إحدى الأمم وفي هذه الأمة من أساس ثابت تنبت عليه آراء متقلبة كتقلب التراب الذي يستر الصخرة.

وهكذا تنقسم المعتقدات والآراء إلى قسمين مختلفين، فمن جهة تُبصر المعتقدات الكبيرة الثابتة التي تدوم عدة قرون فتقوم عليها إحدى الحضارات بأجمعها، شأن المبادى الإقطاعية والأفكار النصرانية والآراء الإصلاحية فيما مضى، وشأن مبادى القوميات والأفكار الديموقراطية والاشتراكية في أيامنا، ومن جهة أخرى تُبصر الآراء الموقتة المتحولة المشتقة في الغالب من المبادئ العامة، فيرى كل جيل ظهورها وزوالها، شأن النظريات التي توجه الفنون والآداب ذات حين والتي تذكر منها مثلا ما يُسفر عن المذهب الروائي والمذهب الطبيعي إلخ، وهذه الآراءه، وهي سطحية كالزى، تتغير كتغير الأمواج الصغيرة الناشئة فتزول باستمرار فوق بحيرة ذات مياه عميقة .

وعدد المعتقدات الكبيرة العامة قليلٌ جدا، و يتألف من تكوينها وزوالها في كل عرق تاريخي أبرز أدوار تاريخ هذا العرق، فهي قوام الحضارات الحقيقي .

ومن السهل أن يستقر رأي عابر في روح الجماعات، ولكن من الصعب جدا أن يرسخ في تلك الروح معتقد دائم، كما أن من الصعب جدا أن يهدم هذا المعتقد بعد تكوينه، ومعتقد كهذا لايمكن تغييره إلا بالثورات العنيفة وقتا يكون قد خسر جميع سلطانه على النفوس تقريبا، وهنالك تنفع الثورات في نبذ ما كان قد هجر من المعتقدات نبذًا كاملًا فتحول العادة دون إهماله إهمالًا تامًا، والحق أن الثورات التي تقبل هي معتقدات تدبر.

واليوم الذي تبدو فيه علائم الزوال على المعتقد الكبير هو اليوم الذي تغدو فيه قيمة هذا المعتقد موضع جدال، و إذ لم يكن كل معتقد عام غير افتراضٍ فإنه لايدوم إلا إذا تفلت من سلطان البحث.

بيد أن النظم التي تشتق من المعتقد تحافظ على قوتها مع ارتجاج ذلك المعتقد، فلا تمحى تلك النظم إلا ببطوء، والمعتقد إذا ما فقد جميع سلطانه في نهاية الأمر انهار جميع ما يمسكه .

ولم توفق أمة لتغيير معتقداتها من غير أن يقضى عليها من فورها بتحويل عناصر حضارتها، وتلك الأمة تسير في تحويل هذه العناصر حتى الزمن الذي تعتنق فيه معتقدًا جديدًا عامًا، وتلك الأمة تعيش في الفوضى حتى ذلك الزمن، فالمعتقدات العامة هي دعائم ضرورية للحضارات، وهي التي توجه الأفكار، وهي التي توحي بالإيمان وتوجد الواجب .

والأمم شعرت على الدوام بفائدة اكتساب معتقدات عامة، والأمم أدركت بغريزتها أن زوال هذه المعتقدات هو نذير انحطاط لها، وقديما كان يتألف من عبادة رومة بتعصب ذلك المعتقد الذي جعل الرومان سادة الدنيا، فلما مات ذلك المعتقد هلكت رومة، وانظر إلى حال البرابرة الذين قضوا على حضارة الرومان تجد أنهم لم ينالوا شيئا من الالتحام فيخرجوا من الفوضى إلا عند اكتسابهم بعض المعتقدات العامة .

إذن، ليس من غير سبب أن دافعت الأمم عن معتقداتها بتعصب على الدوام، و يبدو هذا التعصب فضيلة في حياة الأم، وإن كان موضع انتقاد شديد من الناحية الفلسفية، وفي سبيل إقامة معتقدات عامة أو تأييدها أقيمت المحارق في القرون الوسطى ومات كثير من المخترعين والمبتدعين قانطين عند ما لا تصيبهم ضروب التعذيب، وفي سبيل الدفاع عن المعتقدات قُلِبت الدنيا غير مرة وسقطت ملايين البشر في ميادين القتال كما أنها ستسقط .

ومما قلناه ان هنالك مصاعب كبيرة تحول دون قيام معتقد عام، ولكن هذا المعتقد إذا ما قام أضحى ذا سلطان لا يقهر زمنا طويلا، وهذا المعتقد يفرض أنه على ذوي البصائر مهما كان فاسدًا من الوجهة الفلسفية، أقل تَعُد أمم أوربة منذ خمسة عشر قرنا من الحقائق الثابتة تلك الأساطير الدينية

التي تبلغ في غلظتها[21] أساطير مولك إذا ما بُحِث فيها عن كثب ؟ لم يبصر أحدٌ في عدة قرونٍ هول فساد تلك الأسطورة القائلة إن إلها انتقم من ابنه بأقسى العذاب تكفير عن عصيان أحد خلقه، حتى إن أحدًا من أقوى العباقرة، كغليلو و نيوتن وليبنتز، لم يفترض إمكان الجدال في حقيقة مثل تلك الأساطير ولو ثانية واحدة، ولا شيء أحسن من ذلك يثبت ما ينجم عن المعتقدات العامة من التنويم، ولكنك لا تجد شيئا أحسن من ذلك يدل على ما لروحنا من الحدود المخزية.

والعقيدة الجديدة إذا ما رسخت في روح الجماعات أوحت إلى هذه الروح بنظمها وفنونها وسلوكها، وهنالك يغدو سلطان العقيدة على النفوس مطلقا، فيفكر رجال العمل في تحقيقها، ويفكر المشترعون في تطبيقها، ويفكر الفلاسفة والمتفننون والأدباء في التعبير عنها بمختلف الوجوه .

أجل، يمكن أن ينشأ عن المعتقد الأساسى أفكار موقتة ثانوية، غير أن هذه الأفكار تحمل على الدوام طابع الإيمان الذي صدرت عنه، وقد اشتقت الحضارة المصرية وحضارة القرون الوسطى الأوربية وحضارة العرب الإسلامية من عدد قليل من المعتقدات الدينية التي طبعت طابعها على أدق عناصر هذه الحضارات فأسفر ذلك عن سهولة معرفتها من فورها .

[21] هي غليظة من الناحية الفلسفية، وأما من الناحية العلمية فقد وجدت حضارة تامة الجدة أبصر الإنسان من خلالها في قرون طويلة تلك الجنات التي سحرت خياله وذلك الأمل لن يحرفه بعد اليوم.

ويحاط رجال كل جيل بفضل المعتقدات العامة بشبكة من التقاليد والآراء والعادات التي لا يقدرون على التخلص منها والتي تجعلهم متشابهين بعض الشبه على الدوام، ولا يفكر أكثر النفوس استقلالًا في التفلت من نيرها، ولا طغيان حقيقيا غير الذي يعتري النفوس على وجه لا شعوري، وذلك لأنه الطغيان الوحيد الذي تتعذر مكافحته، أجل، كان طيبريوس وجنكيزخان و ناپليون طغاة مرهوبين لاريب، غير أن ما لموسى و بدقة (بوذا) وعيسى ومحمد ولوثر من تحكم في النفوس صادر عن أعماق قبورهم فذو أثر أبعد مما لأولئك، وقد تقضي مؤامرة على جبار، ولكن ماذا يستطيع أن يصنعه مثل هذه المؤامرة في معتقد مستقر بالنفوس؟ وانظر إلى الثورة الفرنسية الكبرى تجد أنها هي المغلوبة في مقاتلتها العنيفة للكثلكة على الرغم من مؤازرة الجموع لها في الظاهر وعلى الرغم مما اتخذته من وسائل الإبادة التي تشابه في قسوتها وسائل محاكم التفتيش، فلقد كانت ظلال الأموات أو الأوهام التي أوجدها الإنسان لنفسه جبابرة البشر الحقيقيين في كل زمن.

ولم تكن استحالة بعض المعتقدات العامة من الناحية الفلسفية لتعوق انتصار هذه المعتقدات كما قلت ذلك غير مرة، حتى إن هذا الانتصار لا يكون ممكنًا كما يلوح إلا إذا اشتمل على شيء من المحال الخفي، ولن يحول ضعف المعتقدات الاشتراكية الحاضرة الواضح دون رسوخ هذه المعتقدات في روح الجماعات، والذي يجعل هذه المعتقدات أقل مرتبة من جميع

المعتقدات الدينية هو أن هذه المعتقدات الدينية تعد بسعادة لا تحقق في غير حياة ثانية لا يقدر أحد أن يمارى في أمر تحقيقها، وأن السعادة الاشتراكية إذ كان عليها أن تتحقق في الدنيا لا يعتم بطلان الوعود بها أن يبدو منذ البدء بتحقيق هذه الوعود فيفقد المعتقد الجديد كل نفوذ له، فسلطان الخيال الاشتراكي لا يعظم إلا إلى يوم تحقيقه إذن، ولذلك نقول إذا كان هذا الدين الجديد في البداءة ذا عمل مخرب كجميع الأديان التي ظهرت قبله فإنه لن يكون ذا شأن مبدع .

تقلب الآراء في الجماعات

تجد فوق المعتقدات الثابتة التي بيَّنا ما لها من سلطان طبقة من الآراء والأفكار والتصورات التي تولد وتموت دومًا، ومنها ما يدوم قليلا جدا ولا يجاوز دوام أهمها حياة جيل واحد، ومما أشرنا إليه أن التغيرات التي تعتور تلك الآراء تكون في بعض الأحيان سطحية أكثر من أن تكون حقيقية فتحمل سمة صفات العرق على الدوام، ونحن حين نظرنا إلى نظم بلدنا السياسية مثلا بيَّنا أن أشد الأحزاب اختلاف في الظاهر، كالملكيين والجذريين والإمبراطوريين والاشتراكيين إلخ، ذات خيال متماثل تماما، وأن هذا الخيال يعود إلى مزاج عرقنا النفسي وحده ما دمت ترى لدى أمم أخرى خيالًا معاكسًا و إن تماثلت الأسماء، وليس من شأن الاسم الذي يطلق على الآراء، ولا من شأن المطابقات الخادعة، أن يمر أساس الأمور، ومن ذلك أن أبناء الطبقة الوسطى أيام الثورة الفرنسية كانوا مشبعين من

الآداب اللاتينية وكانت عيونهم شاخصة إلى الجمهورية الرومانية فانتحلوا قوانينها وقضبانها السندرية وحللها فلم يصبحوا من الرومان مع ذلك لما كان من خضوعهم لسلطان مؤثراتهم الموروثة القوية .

ويقوم شأن الفيلسوف على البحث عما يبقى من المعتقدات القديمة تحت ستار التحولات الظاهرة، وأن يميز من خلال أمواج الآراء المتقلبة تلك الحركات التي تعينها المعتقدات العامة وروح العرق .

ولولا ذلك المقياس لأمكن القول بأن الجماعات تُغَيِّر من المعتقدات السياسية أو الدينية كثيرًا كما تريد، و يظهر أن التاريخ بأسره سياسيًا كان أو دينيًا أو فنيًا أو أدبيًا يؤيد هذا القول بالحقيقة .

ولنتخذ دورًا قصيرًا مثلًا، أي الدور الممتد من سنة ١٧٩٠ إلى سنة ١٨٢٠، وهو يعدل جيلًا لدوامه ثلاثين سنة، في هذا الدور نرى الجماعات، وقد كانت ملكية في البداءة، أصبحت ثورية فإمبراطورية، ثم عادت إلى الملكية، وفي ذلك الدور ترى الجماعات قد تطورت في الدين فانتقلت من الكاثوليكية إلى الإلحاد فإلى الاعتقاد بوجود الإله مع إنكار الوحي، ثم رجعت إلى أشد وجوه الكاثوليكية مغالاةً، وليست الجماعات وحدها هي التي عانت تلك التحولات، بل عاناها زعماء هذه الجماعات أيضا، ومن هؤلاء كبار رجال العهد الذين كانوا أعداء الملوك الزرق ولم يريدوا إلها ولا رؤساء فغدوا خُدَّامًا خضعًا لنابليون ثم حملوا بخشوع شموعا في الاحتفالات أيام لويس الثامن عشر.

وما أكثر ماحدث من تحول في آراء الجماعات في السنوات السبعين التي عقبت ذلك الدور، فقد أصبح ألبيون الغدار (إنكلترة) حليفة الفرنسية في عهد وارث نابليون منذ أوائل هذا القرن، وحاربنا روسية مرتين فُسرت كثيرا بما أصبنا به من الانكسار الأخير، ثم عدت صديقة لنا بغتة.

وأسرع من ذلك أيضا ما يتجلى في الآداب والفنون والفلسفة من تعاقب الآراء، فقد ظهر المذهب الروائي والمذهب الطبيعي والمذهب التصوف إلخ، وماتت هذه المذاهب بالتتابع، والمتفنن والكاتب اللذان يهتف لهما اليوم يزدريان في الغد ازدراء عميق..

ولكن إذا ما حللنا هذه التحولات العميقة في الظاهر فماذا نرى ؟ نرى أن جميع ماهو مخالف من تلك التحولات المعتقدات العامة ولمشاعر العرق لايتصف بغير ديمومة موقتة، فلا يليث النهر المنحرف أن يعود إلى مجراه، وتكون الأفكار التي لا ترتبط في أي معتقد عام ولا في أي من مشاعر العرق والتي لا تتصف بالثبات لهذا السبب خاضعة لجميع المصادفات، وإن شئت فقل خاضعة لأقل تحول في البيئة، وتكون تلك الأفكار موقتة دوما لأنها وليدة التلقين والعدوى، وهي تولد وتزول بسرعة كأكثبة الرمال التي تكونها الريح على شاطئ البحر.

ومقدار ما في الجماعات من آراء متقلبة في أيامنا أعظم ما في أي زمن، ولهذا ثلاثة أسباب مختلفة :

فالسبب الأول هو أن المعتقدات القديمة تفقد سلطاتها بالتدريج، فعادت لا تؤثر كما في الماضي في الآراء العابرة فتمنحها بعض التوجيه، وما كان من امحاء المعتقدات العامة فإنه يفسح في المجال لطائفة من الآراء الخاصة التي لا ماضي لها ولا مستقبل .

والسبب الثاني هو أن سلطان الجماعات يزيد فينقص ما يوازنه مقدارًا فمقدارًا فتستطيع أفكارها الشديدة التقلب أن تبدو طليقة .

والسبب الثالث هو ما اتفق المطبوعات حديثا من انتشار، فأسفر هذا الانتشار عن عرض أكثر الآراء تناقض على الأعين، وما يصدر عن كل واحد من تلك الآراء من تلقين لا يلبث أن تقضى عليه تلقينات معاكسة، ولا يتفق لأي رأي من الانتشار ما يهدف إليه إذن، وترى جميع الآراء محكومًا عليها بالأفول إذن، وهي تموت قبل أن يتم لها من الذيوع ما تصبح به عامة إذن .

وتنجم عن تلك العلل المختلفة ظاهرة حديثة في تاريخ العالم ينفرد بها الجيل الحاضر، وتلك الظاهرة هي عجز الحكومات عن توجيه الرأي العام .

كان تأثير الحكومات و بعض الكتاب وعدد قليل من الجرائد في الماضي، وفي الماضي غير البعيد، ناظما حقيقا للرأي العام، واليوم أضاع الكتاب كل نفوذ، وعادت الجرائد لا تفعل غير ترديد صدى الرأي العام، وصار رجال الدولة لا يرون غير اتباع الرأي العام بدلا من قيادته، وما يحدث أحيانا أن ينقلب

خوف رجال الدولة من الرأي العام إلى هول فيذهب هذا بكل ثبات في سيرهم.

ومن ثم ترى أن رأى الجماعات يتدرج إلى أن يكون ناظم السياسة الأعلى، واليوم يبلغ هذا الرأي من القوة ما يفرض به محالفات كحالفتنا للروس التي نشأت عن حركة شعبية كما رأينا .

ومن أطرف ما يقع في أيامنا ما بصره من خضوع البابوات والملوك والقياصرة لبدأ التزاور فيعرضون رأيهم في الموضوع وفق حكم الجماعات، وسابقا أمكن القول بأن السياسة ليست أمرا عاطفيا، فهل يمكن أن يقال ذلك في هذا الزمن الذي تهتدى فيه السياسة باندفاعات الجماعات المتقلبة الجاهلة للعقل والتابعة للعاطفة فقط ؟

وانظر إلى الصحافة، وهي التي كانت دليل الرأي العام فيما مضى، تجدها مكرهة على الأزواء أمام سلطان الجماعات كما تنزوى الحكومات، والصحافة قدرة عظيمة في الحقيقة، وهي صاحبة لهذه القدرة لأنها مرآة الآراء الشعبية ولما لا ينقطع من تقلب هذه الآراء، وهي لأنها عدت وكالة استخبار بسيطة عدت عن فرض أي فكر أو أي مذهب، وهي تتَّبع كل تحول في الرأي العام، وما كان من ضرورة المزاحمة فيقضى عليها بذلك حذر افتقاد قرائها، وتوارت الصحف القديمة العظيمة التي كانت ذات نفوذ بالغ فكان الجيل الماضي يصغي إليها بخشوع إصغاءه إلى الآيات، أو أصبحت وريقات أنباء محاطة بالنوادر المسلية واللطائف المحببة والإعلانات المالية،

واليوم ماذا يصبح أمر جريدة تكون من الثراء ما تفسحح معه لكتابها مجالًا يبدون فيه آراء شخصية ؟ وماذا يكون لهذه الآراء من التأثير في قراء لا يطالبون بغير الأنباء والفكاهات ولا يبصرون خلف كل نصيحة سوى المساومة؟ حتى إن النقاد أنفسهم أصبحوا غير قادرين على عرض كتاب أو رواية تمثيلية، وذلك لما يجلبه من ضرر ولا يوجبه من نفع، والجرائد قد بلغت من الشعور بعدم فائدة كل رأي شخصي ما ألغت معه النقد الأدبي على العموم مقتصرة على ذكر اسم الكتاب وعلى نشر سطرين أو ثلاثة أسطر كإعلان عنه، وقد يقع مثل ذلك بعد عشرين سنة في أمر النقد التمثيلي.

وترصده الرأي العام أصبح في أيامنا شغل الصحافة والحكومات الشاغل، فغدت لا ترى غير معرفة ما يكون من تأثير هذه الحادثة أو تلك الخطة الاشتراعية أو تلك الخطبة فيه، وليس هذا بالأمر السهل لما ليس هنالك من رأى أشد تقلبًا وأعظم تحولًا من رأي الجماعات، والجماعات تسقط في المساء من هتفت له في الصباح .

ونشأ عن فقدان توجيه الرأي العام وعن انحلال المعتقدات العامة تفتت تام في ضروب اليقين وعدم اكتراث زائدٌ في الجماعات والأفراد لما لا يمس مصالحها المباشرة مسًا ظاهرًا، وما كان للمسائل المذهبية، كالاشتراكية مثلا، أن تجمع حماتها المؤمنين إلا من الطبقات الجاهلة كعمال المناجم والمعامل، وقد أصبح ابن الطبقة الوسطى والعامل الذي هو على شيء من الثقافة من المرتابين .

والتطور الذي تم منذ ثلاثين سنة على ذلك الوجه جالبٌ للنظر، وكانت الآراء في الدور السابق، أي في ذلك الدور البعيد منه قليلًا، ذات وجهة عامة لاشتقاقها من بعض المعتقدات الأساسية، وكان المبدأ الملكي يمنح حتمًا بعض الأفكار المقررة في التاريخ وفي العلوم بسبب ملكيته فقط، وكان المبدأ الجمهوري يمنح حتمًا أفكارًا مناقضة لذلك مناقضة تامة، وكان الملكي يرى أن الإنسان غير منحدر من القرد، وكان الجمهوري يرى أن الإنسان منحدر من القرد، وكان على المليكي أن يتكلم عن الثورة الفرنسية مغاضبًا، وكان على الجمهوري - أن يتكلم عنها محترمًا، وكان يجب أن يذكر بعض الأسماء بخشوع كاسم رو بسبير واسم مارا، وكانت أسماء أخرى لا تذكر إلا مع الشتائم كأسماء قيصر وأغسطس و نابليون، حتى إن هذا الطراز الوضيع في التاريخ سرى إلى كلية السوربون نفسها.

واليوم يفقد كل رأي نفوذه بفعل الجدل والتحليل، ولا تلبث أركانه أن تتداعى فلا يبقى من الأفكار التي تستهوينا سوى القليل إلى الغاية، وصار عدم الاكتراث يستحوذ على الرجل المعاصر شيئًا فشيئًا .

ولا نأس على ما تصاب به الآراء من تفتت شامل، ولا مراء في أن ذلك علامة انحطاط في حياة الأمة، أجل، إن للعافين والرسل والزعماء، و إن شئت فقل الموقنين، من القدرة ما ليس لملاحدة والنقاد والأخلياء، ولكن لا ننس أنه إذاما تنسى لرأي من النفوذ ما يستطيع به أن يفرض بفعل سلطان الجماعات العتيد لم يعتم هذا الرأي أن يكتسب من الجبروت ما

ينحني أمامه الجميع، وهنالك يغلق دور الجدل الحر لطويل زمن، والجماعات، و إن أمكن أن يكون لها سادة مسالمون في بعض الأحيان كهليوغابال وطيبريوس في ساعات لهم، تراها مثلهما ذات أهواء شديدة أيضا، وإذا قدر لحضارة أن تصبح قبضة الجماعات وقعت هذه الحضارة تحت رحمة كثيرٍ من المصادفات فلا تدوم زمنًا طويلًا، و إذا حدث ما يؤجل وقت انهيار هذه الحضارة فإن ذلك لا ينشأ إلا عن تقلب الآراء الكثير وعدم اكتراث الجماعات الزائد لجميع المعتقدات العامة .

الباب الثالث

تقسيم أنواع الجماعات ووصفها

الفصل الأول تقسيم الجماعات

تقسيم الجماعات - (١) الجماعات المتباينة - كيف تختلف هذه الجماعات - تأثير العرق - تكون روح الجماعة ضعيفة بمقدار ما في روح العرق من قوة - تمثل روح العرق حال الحضارة وتمثل روح الجماعة حال الهمجية - (٢) الجماعات المتجانسة

- تقسيم الجماعات المتجانسة - الفرق والطوائف والطبقات.

بينا في هذا الكتاب الصفات العامة للجماعات، وبقي علينا أن ندرس ما هو منضود فوق هذه الصفات العامة من الصفات الخاصة بمختلف أنواع الجماعات.

ولنأت بتقسين مختصر للجماعات في بدء الأمر.

والزمرة البسيطة هي أول ما نتناوله، ويتجلى أدنى طور لهذه الزمرة عندما تكون مؤلفة من أشخاص منتسبين إلى عروق مختلفة، وما في تلك الزمرة من رابطة وحيدة مشتركة فيقوم على إرادة رئيسها المحترمة بعض الاحترام، ويمكننا أن نعد البرابرة المختلف الأصول الذين أغاروا على الدولة الرومانية في عدة قرون أمثلة على تلك التزمر.

وتبدو فوق تلك الزمر غير الملتحمة زمرًا اكتسبت بفعل بعض العوامل صفات عامة فألفت عرقًا، وهذه الزمر، وإن كانت تتجلى فيها مميزات الجماعات، تهيمن عليها مميزات العرق في كل وقت.

وما يلاحظ في كل أمة من أنواع الجماعات فيمكن تقسيمه كما يأتي:

وإليك بضع كلمات عن الصفات الفارقة بين أنواع الجماعات(22).

١- الجماعات المتباينة

هذه الجماعات هي التي درسنا صفاتها فيما تقدم، وهي تتألف من أفراد أيا كانوا وكيفما كانت مهنتهم وذكاؤهم.

(22) تجد تفصيلًا لمختلف أنواع الجماعات في كتبي الأخيرة: روح السياسة والآراء والمعتقدات وروح الثورات.

وما أثبتناه في هذا الكتاب أن نفسية الناس في الجماعة تختلف عن نفسيتهم وهم منفردون اختلافًا جوهريًا وأن الذكاء لا يحول دون هذا الاختلاف، ومما رأيناه أن الذكاء لا يمثل أي دور في الجموع، وأن المشاعر اللاتنبهية وحدها هي التي تستطيع أن تؤثر فيها إذ ذاك.

وهنالك عامل أساسي، أي العرق، يؤدي إلى تقسيم الجماعات المتباينة تقسيمًا واضحًا، وإلى شأن العرق رجعنا غير مرة فبينا أنه أقوى عامل في صدور أفعال الناس، وتأثير العراق يتجلى في أخلاق الجماعات أيضًا، فإذا ما تألفت جماعة من أفراد أيًّا كانوا، على أن يكونوا كلهم من الإنكليز أو الصينيين مثلًا، اختلفت هذه الجماعة اختلافًا تامًا عن جماعة أخرى مؤلفة من أفراد أيًّا كانوا، على أن يكونوا من عروق مختلفة كالروس والفرنسيين والإسبان إلخ.

ويبدو الاختلاف العميق الذي هو وليد المزاج النفسي الموروث في طراز شعور الناس وتفكيرهم عندما تجمع بعض الأحوال النادرة أناسًا من أمم مختلفة في جماعة واحدة على نسب متساوية تقريبًا مهما كانت المصالح التي تجمع بينهم متحدة، وما بذله الاشتراكيون من المساعي في صهر ممثلي فريق العمال من كل بلد في مؤتمرات كبيرة فقد أدى إلى أشد الاختلافات على الدوام، فالجماعة اللاتينية، مهما كانت ثورية أو محافظة، تلجأ إلى الحكومة تحقيقًا لمطاليبها، وهي تسير إلى المركزية وإلى القيصرية في كل وقت، والجماعة الإنكليزية أو الأمريكية هي بالعكس لا تعرف الحكومة، وهي

لا تعتمد على غير المبادرة الشخصية، والجماعة الفرنسية تبغي المساواة قبل كل شيء، والجماعة الإنكليزية تبغي الحرية، وعن فروق العروق تنشأ جماعات منوعة تنوع الأمم.

إذن، تسيطر روح العرق على روح الجماعة سيطرة تامة، وروح العرق هي الركن المتين الذي يحدد تقلبات الجماعة، وروح العرق كلما كانت قوية كان أحط أخلاق الجماعات أقل بروزًا، وهذه هي سنة جوهرية، وبيان الأمر أن الهمجية أو العودة إلى الهمجية تتألف من حال الجماعة ومن سلطان الجماعات، وأن العرق باكتسابه روحًا متينة يتفلت بالتدريج من سلطان الجماعات العاطلة من التبصر ويخرج من طور الهمجية.

وإذا عدوت العراق وجدت التقسيم المهم للجماعات المتباينة يقوم على تفريق هذه الجماعات إلى جماعات مغفلة كجماعات الشوارع وإلى جماعات غير مغفلة كالمجالس النيابية وكالمحلفين مثلًا، وإذ كان الشعور بالمسؤولية صفرًا لدى الأولى وناميًا لدى الثانية كان لأعمال كلتا الجماعات اتجاهات مختلفة في الغالب.

٢- الجماعات المتجانسة

تشتمل الجماعات المتجانسة على الفرق والطوائف والطبقات.

فأما الفرقة فهي الدرجة الأولى في نظام الجماعات المتجانسة، وهي تحتوي أفرادًا مختلفين تربية ومهنًا، وبيئات في بعض الأحيان، فلا يربط بينهم سوى وحدة المعتقدات، كالفرق الدينية والسياسية مثلًا.

وأما الطائفة فهي تمثل أعلى درجة في نظام الجماعات، فبينما ترى الفرقة تتألف من أفراد مختلفين مهنًا وتربية وبيئات في الغالب فلا يجمع بينهم غير وحدة المعتقدات ترى الطائفة لا تشتمل على غير أفراد ذوي دهنة واحدة ومن ثم ذوي تربية وبيئات واحدة تقريبًا، كالطوائف المقاتلة والكهنوتية مثلًا.

وأما الطبقة فتتألف من أفراد مختلف الأصول جمعت بينهم بعض المصالح وبعض طرق الحياة والتربية المتشابهة كالطبقة الوسطى وطبقة الزراع إلخ، لا وحدة المعتقدات كما بين أعضاء الفرقة، ولا وحدة المهن كما بين أعضاء الطائفة.

وإذ انني لا أبحث في هذا الكتاب عن غير الجماعات المتباينة فإني لا أفْرد كلامًا لغير بعض أنواع الجماعات المتجانسة التي اخترتها كنماذج.

الفصل الثاني الجماعات الجارمة

الجماعات الجارمة - قد تكون الجماعة جارمة قانونًا، لا نفسيا - اللاشعور الصرف في أعمال الجماعات - أمثلة مختلفة - روح السبتمبريين - تعقلهم وشعورهم ووحشيتهم وأخلاقهم.

يظهر أن من الصعب أن توصف الجماعة بالمجرمة بعد أن يمضي وقت هياج تكون قد انقلبت فيه بفعل بعض التلقينات إلى آلات غير شاعرة، وتراني أحافظ على هذا الوصف الخاطئ مع ذلك لما كان من اتخاذ بعض المباحث النفسية له، أجل، إن بعض أعمال الجماعات جارم من حيث هو لا ريب، ولكن على أن تعد هذه الأعمال

كافتراس النمر للهندوسي بعد أن يكون قد تركه لصغاره يتلهون بتمزيقه.

تنشأ جرائم الجماعات على العموم عن تلقين قوي، ويعتقد الأفراد الذين اشتركوا في اقترافها أنهم قاموا بواجب، وغير هذا هو حال المجرم العادي.

وتاريخ ما ارتكبته الجماعات من الجرائم يوضح ما تقدم.

ومن الأمثلة البارزة على ذلك قتل محافظ سجن الباستيل مسيو دولوناى، فبعد أن تم الاستيلاء على هذا الحصن أحاطت جماعة شديدة الهيجان بذلك المحافظ، فصار يتلقى الضربات من كل جانب، وقد اقترح أن يشنق أو أن يضرب عنقه أو أن يربط بذيل فرس، وفيما كان محافظ السجن يدافع عن

نفسه ركل أحد الحضور خطأ فاقترح بعضهم أن يقطع المضروب عنقه فهتفت الجماعة لذلك الاقتراح في الحال.

"كان المضروب طاهيًا بلا عمل، وكان شبه أبله فذهب إلى الباستيل ليرى ماذا يقع هنالك، ويجد أن الفعل وطني ويعتقد أنه يستحق وسامًا بقتله ذلك الوحش ما دام هنالك رأي أجمع عليه، ويسلم سيف إليه فيضرب العنق العاري، ولكن السيف لم يقطع لأنه غير مرهف، فيخرج من جيبه سكينًا صغيرة ذات مقبض أسود، فيتم بها عمله موفقًا لما كان من خبرته في تقطيع اللحوم كطباخ".

وهنا يتضح لك النظام المذكور آنفًا، وهو قائم على الخضوع لتلقين قوي صادر عن جماعة وعلى اعتقاد القاتل أنه أتى عملًا يؤجر عليه لما كان من إجماع بني وطنه على استحسانه، فعمل كهذا وإن أمكن نعته بالآثم قانونًا، ليس إثمًا من الناحية النفسية.

والصفات العامة للجماعات الجارمة هي عين الصفات التي أبصرناها لدى جميع الجماعات، وهي قابلية التلقن وسرعة التصديق والتقلب والتطرف في المشاعر الطيبة والمشاعر السيئة وإظهار بعض الأطوار الخلقية إلخ.

وتجد جميع تلك الصفات مجتمعة في إحدى الجماعات التي تركت أشأمَ ذكر في تاريخنا، أي في جماعة شهر سبتمبر، وتجد كبير شبه بين هذه الجماعة والجماعات التي قامت بمذبحة سان بارتلمي مع ذلك، ومن تاين أقتبس تفصيل قصة تلك الجماعة، فهو الذي استنبطها من مذكرات ذلك الزمن.

لا نعرف على الوجه الصحيح من الذي أمر أو حرض على إخلاء السجون بقتل السجناء، وليس من المهم أن نعلم أن الآمر هو دانتون كما يحتمل أو غيره، وإنما الذي يهمنا هو أنه وجد تلقين قوي تلقته الجماعة التي وكل إليها أمر القتل.

كان جيش القتلة مؤلفًا من نحو ثلاثمئة شخص، وكان هذا الجيش عنوان الجماعة المتباينة الكامل، وإذا عدوت ما اشتمل عليه من المحترفين القليلين وجدته مؤلفًا على الخصوص من أصحاب الحوانيت ومن ضاع مختلف الحرف، أي من الحذائين والقفالين والحلاقين والبنائين والمستخدمين والعملاء إلخ، ويلقن هؤلاء ويغدون بفعل هذا التلقين كذلك الطاهي فيعتقدون أنهم يقومون بواجب وطني، وينتحلون وظيفتين: وظيفة القضاة ووظيفة الجلادين، ولا يعدون أنفسهم من المجرمين أبدًا.

ويشعرون بعظم شأنهم، ويبدءون بتأليف ضرب من الحكمة، وتتجلى روح البساطة والإنصاف البسيط في الجماعة، ويبصر عدد المتهمين الكبير ويحكم أولًا بقتل الأشراف والقسوس والضباط وخدام الملك منهم، أي بقتل جميع الأفراد الذين تتخذ منهم وحدها دليلًا على الإجرام في نظر كل وطني صادق، وذلك جملة من غير احتياج إلى قرار خاص، ويحكم على الآخرين بالسيمى أو بالشهرة، فلما اطمأن شعور الجماعة الابتدائي على هذا الوجه كان لها أن تبدأ بالقتل قانونًا، وأن تطلق العنان لغرائز التوحش التي أوضحت تكوينها في مكان آخر والتي يمكن الجموع وحدها أن تنميها إلى

أقصى حد، وتلك الغرائز لا تحول مع ذلك دون اقترانها في الجماعات بمشاعر مناقضة أخرى كعاطفة التأثر التي تبلغ في تطرفها تلك القسوة.

"كان لأولئك ما للعامل الباريسي من عطف وسيع وإحساس سريع، ومن ذلك أن أحد المتعاهدين علم في السجن أن الموقوفين تركوا بلا ماء منذ ست وعشرين ساعة فأراد أن يبيد البواب المهمل، وكاد يفعل ذلك لولا شفاعة الموقوفين أنفسهم، وإذا ما برِّئ سجين (من قبل المحكمة المرتجلة) قبله جميع الناس من حرس وقتلة بحرارة وهتفوا له هتافًا شديدًا"، ثم عادوا يقتلون الآخرين وما انفك السرور يلازمهم في أثناء الذبح، فيرقصون ويغنون حول الجثث معدين مقاعد "للسيدات" اللائي يسعدهن الحظ بمشاهدة قتل الأشراف، ولم يفتأوا يظهرون إنصافًا خاصًا أيضًا، وآية ذلك أن قاتلًا توجع في السجن من أن السيدات لا يشاهدن القتل لوضعهن في مكان غير قريب منه، ومن أن بعض الحضور وحده يتمتع بضرب الأشراف، فرئي صواب هذه الملاحظة، وقرر أن يمشي الضحايا الهوينا بين صفين من القتلة فلا يستطيع هؤلاء أن يضربوا بغير متن السيف مدا لأمد التعذيب، وتنزع ثياب الضحايا فيغدون عراة تمامًا فيمزقون في نصف ساعة، ثم يجهز عليهم ببقر بطونهم بعد أن يكون الجميع قد رأى ما حدث جيدًا.

وكان القتلة شديدي الأمانة مع ذلك، فيظهرون من الفضائل ما ذكرنا وجوده في الجماعات آنفًا، فيأتون إلى منضدات اللجان بنقود الضحايا وحليهم.

وعلى الدوام كنت تجد في أفعالهم ما تتصف به الجماعات من وجوه التعقل الساذجة، ومن ذلك أن أولئك لم يكادوا يفرغون من ذبح الألف والمئتين أو الألف والخمسمئة من أعداء الوطن حتى رأى أحدهم، وقد قبل رأيه حالًا، أن السجون الأخرى تشتمل على أناس من السائلين المسنين ومن الأفاقين ومن الأحداث الموقوفين، أي تشتمل على أفواه لا خير فيها، فيحسن التخلص منهم، وذلك إلى أنه كان يوجد بين هؤلاء أعداء للشعب بالحقيقة كأرملة أحد الذاعفين المدعوة، دولارو، "فهي لابد من أن تكون حانقة من سجنها، وهي لابد من أن تحرق باريس لو استطاعت ذلك، وهي لابد من أن تكون قد قالت هذا، وهي قد قالته لا ريب، فوجب أن تكنس إذن"، ويبدو الدليل واضحًا ويقتل الجميع جملة، ومن هؤلاء نحو خمسين غلامًا كانت أعمارهم تترجح بين السنة الثانية عشرة والسنة السابعة عشرة، فذبحوا لما قيل من إمكان ظهورهم أعداء للأمة ذات يوم ووجوب إبادتهم لهذا السبب.

ويدوم الذبح أسبوعًا، فلما تم فكر القتلة في الراحة، وهم إذ اعتقدوا أنهم قاموا بأحسن خدمة الوطن طالبوا السلطات بأن تكافئهم، حتى إن أكثرهم غيرة رغب في نيل أوسمة.

وفي تاريخ ثورة سنة **1871** المعروفة بالكومون أمثلة كثيرة من ذلك الطراز، ولا ريب في أن نمو سلطان الجماعات واستخذاء السلطات لها سيؤديان إلى حدوث وقائع كثيرة كالتي ذكرنا.

الفصل الثالث محلفو محكمة الجنايات

محلفو محكمة الجنايات - صفات المحلفين العامة - يدل الإحصاء على أن أحكامهم مستقلة عن تأليفهم - كيف يتأثر المحلفون - ضعف تأثير البرهان - طرق الإقناع التي يتخذها المحامون المشهورون - طبيعة الجرائم التي يبدو المحلفون أشداء أو متسامحين أمامها - فائدة نظام المحلفين والضرر الذي ينجم عن استبدال نظام القضاة به.

لا نستطيع أن ندرس في هذا الكتاب جميع أنواع المحلفين، فترانا نبحث في أهمها: نبحث في محلفي محكمة الجنايات، ومن المحلفين يتألف أحسن مثال للجماعات المتباينة غير المغفلة، وفي المحلفين تتجلى قابلية التلقن وهيمنة العواطف اللاشعورية وضعف التأثر بالمعقول ونفوذ الزعماء إلخ، ونحن إذ نبحث في أمر المحلفين يكون لدينا من الفرصة ما نلاحظ به نماذج الأغاليط التي يمكن أن يقترفها أناس غير عارفين بروح الجماعات.

وأول ما تجده في المحلفين من حيث الأحكام هو الدلالة على ضعف أهمية المستوى النفسي لمختلف العناصر التي تتألف منها الجماعة، ومما رأيناه أن العقل لا يمثل أي دور في المجالس الشورية التي يطلب منها أن تبدي رأيها في مسئلية غير ذات صبغة فنية، وأنه لا يصدر عن اجتماع مؤلف من علماء ومتفننين أحكام في الموضوعات العامة أرقى من أحكام أناس من

البنائين، وفي مختلف الأدوار كانت الإدارة تعنى باختيار الأشخاص الذين يتألف المحلفون منهم فكانت تجمعهم من بين الطبقات المنورة كالأساتذة والموظفين والأدباء إلخ، واليوم يتألف المحلفون على الخصوص من صغار الباعة وصغار المستصنعين والمستخدمين، ومن دواعي دهشة الكتاب المتخصصين أن دل الإحصاء في الحقيقة على أن أحكام المحلفين متشابهة مهما كانت العناصر التي يتألفون منها، حتى إن القضاة أنفسهم اضطروا إلى الاعتراف بصحة هذا الأمر مهما بلغوا من مناصبة نظام المحلفين العداء، وإليك كيف يعبر رئيس محكمة الجنايات السابق مسيو بيرَاردى غَلاجو عما في نفسه حول هذا الموضوع، وذلك في مذكراته، فقد قال:

"اليوم يتم اختيار المحلفين بالحقيقة من قبل أعضاء المجالس البلدية الذين يوافقون على هذا أو يرفضون ذلك تبعًا لمنازعهم السياسية والانتخابية... واليوم يتألف معظم المختارين من تجار أقل أهمية ممن كانوا يختارون وأدنى شأنًا من موظفي بعض الدوائر.... وإذ كانت جميع الآراء تمتزج بجميع المهن في منصب القاضي، وإذ يحمل كثير من المحلفين حرارة حديثي العهد بالإيمان، وإذ يتلاقى طيبو النية في أدنى المواضع، فإنك تجد روح المحلفين لم تتغير، فظلت أحكامهم كما كانت عليه".

والذي نمسك به من تلك العبارة هو النتائج الصحيحة، لا الشروح التي هي ضعيفة إلى الغاية، ولا يجب من مثل هذا الضعف ما لاح لنا أن روح الجماعات، ومن ثم روح المحلفين، أمر يجهله المحامون والقضاة في الغالب،

ودليلي على ذلك ما ذكره ذلك المؤلف من أن أحد مشاهير المحامين لدى محكمة الجنايات، لاشو، كان يستعمل بانتظام حقه في جميع الأذكياء من المحلفين، والحق أن التجربة، والتجربة وحدها، هي التي دلت على عدم فائدة رفض القضاة في نهاية الأمر، فترى النائب العام والمحامين بباريس على الأقل قد عدلوا اليوم عن ذلك عدولًا تامًا، والواقع هو أن أحكام المحلفين لم تتغير كما لاحظ ذلك مسيو دى غلاجو، "وهذه الأحكام ليست بالمثلى ولا بالسوءى".

والمحلفون كجميع الجماعات يؤخذون بالعواطف، وقلما يؤثر فيهم بالمعقولات، ومن قول أحد المحامين: "إنهم لا يثبتون أمام امرأة ترضع أو أمام صغار يتامى"، ومن قول مسيو دى غلاجو: "أنه يكفي المرأة أن تكون مليحة ليعطف عليها المحلفون".

والمحلفون لا يعرفون الرحمة تجاه الجرائم التي يلوح إمكان إصابتها لهم، وهي التي تكون شديدة الخطر على المجتمع مع ذلك، والمحلفون بدون بالعكس رحماء تجاه الجرائم العاطفية، ومن النادر أن يبدوا أشداء على الأمهات اللائي يقتلن أطفالهن، وأندر من ذلك أن يقسوا على فتاة هجرها غاويها فرمته بالزاج، فالمحلفون يشعرون بغريزتهم أن هذه الجرائم قليلة الخطر على

المجتمع وأن نفع انتقام الفتاة المهجورة أكبر من ضره في بلد لا يحمي قانونه الفتيات المهجورات فيكون بذلك زجر مقدم للغواة في المستقبل(23).

والمحلفون يبهرهم النفوذ كثيرًا كما يبهر كل جماعة، والمحلفون يبدون، كما لاحظ دي غلاجو، شديدي الأريستوقراطية في عواطفهم وإن كانوا كثيري الديموقراطية في تركيبهم، " فيتألف من الاسم والنسب والغنى الكبير والشهرة والاستعانة بمحام بعيد الصيت والأمور المميزة والأمور الزاهية عدة عظيمة في يد المتهمين".

وعلى المحامي الأريب أن يجعل همه مصروفًا إلى التأثير في مشاعر المحلفين، كما يؤثر في كل جماعة، فلا يستند إلى المعقول إلا قليلًا ولا يأتي بغير البراهين الابتدائية، وقد أجاد محام إنكليزي اشتهر بنجاحه أمام محكمة الجنايات تحليل هذه الطريقة فقال:

---

(23) نلاحظ هنا أن هذا التفريق الذي أتاه المحلفون بغريزتهم بين الجرائم المضرة بالمجتمع والجرائم الأخرى لا يخلو من صواب، ومع أن من الواجب أن تهدف قوانين العقوبات إلى حماية المجتمع من المجرمين، لا إلى الانتقام له، تجد قوانيننا ونفوس قضاتنا لاتزال مشبعة من روح الانتقام التي كانت سائدة للحقوق الفطرية، وترى كلمة الانتقام دارجة على الألسنة، ودليلنا على تلك الروح في القضاة ما نبصره من امتناعهم عن تطبيق قانون بيرانجه الرائع الذي يسمح بالحكم مع وقف التنفيذ ما لم يرجع المحكوم عليه إلى الإجرام، والواقع أنك لا ترى قاضيًا يجهل أن فرض العقوبة الأولى يؤدي إلى عودة المحكوم عليه إلى الإجرام حتمًا كما يدل عليه الإحصاء، وإنما يخيل إلى القاضي أنه لا يكون قد انتقم للمجتمع إذا ما خلى سبيل المتهم فتراه يفضل إيجاد أناس من ذوي السوابق الخطرين على ألا ينتقم للمجتمع.

"إنه يرقب المحلفين بدقة وهو يرافع، وهذا هو الحين المناسب، وفي الوجوه يتوسم عن حذق وعادة بما يكون لكل جملة وكل كلمة من أثر فيستنبط نتائجه، وفي البداءة يميز الأعضاء الذين أصبحوا بجانبه، ويأتي من الحركات ما يطمئن به إلى انحيازهم إليه تمامًا، ثم ينتقل إلى الأعضاء الذين يلوح له إعراضهم فيسعى في اكتناه سبب ازورارهم عن المتهم، وهذا أشق ما في عمله، فقد يكون هنالك من الأسباب الكثيرة، الخارجة عن حس العدل، ما يؤدي إلى الحكم على المتهم".

وفي تلك الأسطر خلاصة صائبة لهدف فن الخطابة، وهي تدلنا على عدم فائدة الخطب التي تعد مقدمًا لا يجب أن يغير من عباراتها في كل ثانية وفق ما يكون لها من التأثير.

وليس على الخطيب أن يستميل جميع المحلفين، وإنما يجب عليه أن يجتذب رؤساءهم الذين يوجهون الآخرين، قال المحامي الذي ذكرته آنفًا: "دلتني التجارب على أنه يكفي اثنان أو ثلاثة من ذوى النشاط لجذب الباقين عند إصدار الحكم"، وهذان الاثنان، أو الثلاثة، هما اللذان يجب إقناعهما بتلقينات لبقة، وأول ما يجب أن يصنع هو أن يوقع منهما موقع الرضا، فالرجل في الجماعة إذا ما اكتسب إعجابه ظفر بقناعته تقريبًا، فغدا مستعدًا لعد ما يعرض عليه من الأسباب أمرًا مقبولًا، وإليك الحكاية الآتية التي أقتبسها من كتاب ممتع عن مسيو لاشو:

"من المعلوم أنه كان في مرافعاته أمام محكمة الجنايات لا يحول نظره عن محلفين، أو ثلاثة محلفين، يعرف أو يحس نفوذهما مع صعوبة مراسهما، فكان يصل على العموم إلى التغلب على هذين الجامحين، ومما حدث ذات مرة أن وجد في الريف فأبصر محلفًا لا تلين له قناة تجاه ما كان يلقى عليه من برهانه في ثلاثة أرباع الساعة، وكان هذا المحلف جالسًا في أول الصف الثاني وكان السابع من المحلفين، وكان الوضع جالبًا لليأس، وفيما كان الأمر كذلك إذ قطع لاشو برهنته الحارة وخاطب رئيس المحكمة بقوله: "ألا تستطيعون يا سيدي الرئيس أن تسدلوا الستار هنالك حيث الشمس قد أعشت سيدي المحلف السابع؟"، فهنالك احمر وجه المحلف السابع وتبسم وشكر فصار من أنصار الدفاع".

ومن الكتاب فريق كبير، ومنهم النوابغ، قد هاجم نظام المحلفين بشدة في الزمن الأخير، مع أن المحلفين هم الموئل الوحيد الذي يقي من أغاليط كثيرة تقترفها طائفة لا رقيب عليها(24)، ومن أولئك الكتاب من يودون

(24) حقًا أن القضاء هو السلطة الوحيدة التي لا تخضع أعمالها لأية رقابة، وما اشتعل في فرنسة الديموقراطية من ثورات فلم يمنحها مثل حق تخلية السبيل الذي تباهي به إنكلترة، نعم، إنا أقصينا الطغاة عنا، غير أن القاضي في كل مدينة يتصرف في شرف أهل الوطن وحريتهم كما يشاء، ومن ذلك ترى أن قويضي التحقيق، الذي لم يكد يخرج من مدرسة الحقوق، يتمتع بسلطة عاتية يستطيع أن يسجن بها أكابر القوم لأدني شبهة، وهو يستطيع بهذه السلطة أن يبقيهم في السجن ستة أشهر أو سنة كاملة بحجة التحقيق، ثم أن يخلي سبيلهم من غير تعويض أو اعتذار، ويعدل أمر الإحضار الراهن كتاب الختم في العهد السابق مع الفارق القائل إن كتاب الختم، الذي يلام عليه النظام الملكي السابق بحق، لم يكن في غير متناول أكابر الناس وإن أمر الإحضار أصبح قبضة طبقة من أبناء الوطن بعيدة من الثقافة والاستقلال.

جمع المحلفين من الطبقات المنورة، ولكننا أثبتنا أن الأحكام في مثل هذه الحالة لا تكون إلا مماثلة لما يصدر في الوقت الحاضر، ومن أولئك الكتاب من يستندون في دعواهم إلى الأغاليط التي تصدر عن المحلفين فيرغبون في إلغاء المحلفين واستبدال قضاة بهم، ولكنهم كيف ينسون أن ما يعاب عليه المحلفون من الأغاليط هو مما يقترفه القضاة في بدء الأمر ما دام المتهم لا يحال إلى المحلفين إلا بعد أن يعد مذنبًا من قبل كثير من القضاة، أي من قبل قاضي التحقيق ونائب الجمهورية ودائرة الاتهام؟ أفلا يرى أن المتهم إذا ما فصل في أمره قضاة نهائيًا بدلًا من المحلفين خسر حظه الوحيد في إعلان براءته؟ ألا إن أغاليط المحلفين هي أغاليط القضاة كما ذكرنا، والقضاة وحدهم، إذن، هم الذين يجب أن يلاموا عند النظر إلى الأغاليط القضائية الفظيعة كالحكم على الدكتور س... الذي تعقبه أحد قضاة التحقيق المحدودي العقل بناء على شكوى فتاة بلهاء اتهمته فيها بأنه أسقط حملها في مقابل ثلاثين فرنكًا، وقد كاد هذا الطبيب يرسل إلى سجن الأشغال الشاقة لولا انفجار الرأي العام الذي أسفر عن عفو رئيس الدولة عنه في الحال، وما كان من إعلان جميع بني وطن الطبيب لاستقامته فقد أظهر فظاعة ذلك الخطأ، حتى إن القضاة أنفسهم كانوا يعرفون ذلك،

والقضاة هؤلاء قد استحوذت عليهم روح طائفتهم مع ذلك فلم يألوا جهدًا في منع إمضاء العفو عن ذلك الطبيب، ومن الطبيعي أن يأخذ المحلفون بأقوال النيابة العامة في جميع الأمور التي تشتمل كذلك الأمر على دقائق فنية لا يقدرون على إدراك شيء منها ذاهبين إلى أن الأمر مما حققه قضاة متبتلون إلى معرفة جميع الدقائق، ومن يكون مقترفو الخطأ الحقيقيون إذن: المحلفون أم القضاة؟ فلنحافظ على المحلفين كل المحافظة، فمن المحلفين تتألف الجماعة الوحيدة التي لا يستطيع أي فرد أن يقوم مقامها، والمحلفون وحدهم يمكنهم أن يخففوا شدة القانون الذي هو واحد للجميع من حيث المبدأ فيكون ذا عمًّى فلا يعرف الأحوال الخاصة، وإذ أن القاضي شديد حرفة فإنه يفرض عين العقوبة على اللص القاتل وعلى الفتاة المسكينة التي أدي هجر خادعها لها وبؤسها إلى قتل طفلها، على حين ترى المحلفين يشعرون عن غريزة بأن الفتاة التي أغويت أقل ذنبًا من الغاوي بمراحل، فهي جديرة برأفتهم ما دام القانون لا يجازي الغاوي.

وإني، وقد عرفت روح الطوائف وروح الجماعات الأخرى، لا أرى ما يحفزني إلى عدم تفضيل المحلفين على القضاة إذا ما اتهمت بجزم على غير حق، فبالمحلفين لي كبير أمل بالبراءة، وبالقضاة لي قليل أمل بها، ولنحذر سلطان الجماعات، ولكن ليكن حذرنا من بعض الطوائف أكثر من ذلك بدرجات، فقد يمكن إقناع الجماعات، مع أن الطوائف لا تلين أبدًا.

الفصل الرابع الجماعات الانتخابية

الصفات العامة للجماعات الانتخابية - كيف يقع إقناع هذه الجماعات - الصفات التي يجب أن تكون في المرشح - ضرورة النفوذ - السبب في قلة انتخاب العمال والفلاحين للمرشحين منهم - سلطان الألفاظ والصيغ على الناخب - المظهر العام للمناقشات الانتخابية - كيف تتكون آراء الناخب - سلطان اللجان - اللجان تمثل أشد صور الطغيان - لجان الثورة الفرنسية - لا يمكن أن يستبدل بالتصويت العام شيء آخر مع ضعف قيمته النفسية - السبب في تماثل الأصوات حتى عند قصر حق التصويت على طبقة معينة من أبناء الوطن - معنى التصويت العام في جميع البلدان.

تتألف جماعات متباينة من الجماعات الانتخابية، أي من الزمر التي تدعى إلى انتخاب من يقومون ببعض الوظائف، بيد أن هذه الجماعات، إذ كانت لا تسير إلا في نطاق معين كاختيار أناس من مرشحين كثيرين، لا يرى فيها سوى بعض الصفات التي تقدم بيانها، وأظهر ما يتجلى فيها على الخصوص هو ضعف القدرة على التعقل وفقدان روح النقد وسرعة الغضب وسرعة التصديق والسذاجة، وما يبصر في قراراتها نفوذ الزعماء وشأن العوامل المذكورة آنفا، وهي: التصديق والتكرار والنفوذ والعدوى.

ولنبحث في كيفية إغوائها، وإذا ما بدت لنا أنجح الوسائل تجلت روحها بوضوح.

والنفود هو الصفة الأولى التي يجب أن يتحلى بها المرشح، ولا يمكن أن يقوم مقام النفوذ الشخصي غير نفوذ الغنى، حتى النبوغ حتى العبقرية ليسا عنصريْ نجاح.

وضرورة تحلي المرشح بالنفوذ، ومن ثم قدرته على فرض نفسه بلا جدال، أمر ذو أهمية، وإذا كان الناخبون المؤلفون من عمال وفلاحين لا يختارون منهم من يمثلهم إلا نادرًا فلأن الأشخاص الذين يظهرون منهم لا يتمتعون بأي نفوذ لديهم، وهم إذا ما انتخبوا عدلًا لهم فلأسباب ثانوية، كأن يودوا معارضة رجل عالٍ، رب عمل قوى، يخضع له الناخب في كل يوم فيخيل إلى هذا الناخب أنه يصبح سيدًا على ذلك الرجل ذات حين.

غير أن النفوذ وحده لا يكفي لنجاح المرشح، فالناخب يود أن تدارى شهواته وانتفاخاته، فعلى المرشح أن يتخمه بأشد ضروب الملق مخالفة للصواب وألا يتردد في أن يسوق إليه أكثر الوعود وهمًا، ومما لا يمكن أمام العمال أن يسب أرباب عملهم وأن يهتك سترهم كثيرًا، وأما المرشح المنافس فإنه يسعى في التغلب عليه بأن يوصف من طريق التوكيد والتكرار والعدوى بأنه أخس الآثمين، وأن ارتكابه لكثير من الجرائم أمر يعرفه كل واحد، ولا فائدة في دعم ذلك بالبرهان، والخصم إذا كان سيء الاطلاع على

روح الجماعات حاول تبرئة نفسه بالأدلة، بدلًا من أن يدحض البهتان الموكد ببهتان موكد آخر، فلا يكون له بتلك التبرئة أي حظ في النجاح.

ويجب ألا يكون البرنامج الذي يكتبه المرشح بالغ الصراحة، لتمكن خصومه من اتخاذه حجة عليه في المستقبل، ولكنه لا يعد مبالغًا في برنامجه الشفوي مهما كان، ففي هذا البرنامج يمكنه أن يعد غير خائف بأعظم الإصلاحات، وذلك لما يكون لهذه المبالغات من أثر كبير في الساعة الراهنة، لا في المستقبل حين لا تكون ملزمة، والحق أن الناخب لا يشغل باله بعد ذلك في معرفته: هل قام المنتخب بما هتف له من العهود فانتخب من أجله على ما يفترض.

وهنا يسلم بجميع عوامل الإقناع المذكورة آنفًا، ونجد هذه العوامل أيضًا في تأثير الألفاظ والصيغ التي بينها سلطانها القوي، والخطيب الذي يعرف كيف يتصرف فيها يسير الجماعات كما يشاء، وينشأ عن مثل الكلمات: رأس المال القبيح والمستغلين الأدنياء والعامل الباهر وشيوع الثروات إلخ، مثل ذلك الأثر على الدوام وإن غدت مبتذلة، ولكن المرشح إذا ما استطاع أن يكتشف صيغة جديدة خالية من معنى محدود، ومن ثم ملائمة لمختلف الآمال، كان النجاح حليفه لا ريب، وفي سنة **1875** اشتعلت الثورة الإسبانية بفعل إحدى تلك الكلمات الساحرة ذات المعنى المعقد والتي يمكن كل واحد أن يفسرها وفق ما يرجو، وقد قص أحد كتاب ذلك الحين خبر تكوينها بعبارات جديرة بالنقل، قال ذلك الكاتب:

"وجد الجذريون أن الجمهورية الموحدة ملكية مقنعة فرأى مجلس الكورتس أن يرضيهم فأعلن الجمهورية الاتحادية بالإجماع من غير أن يجرؤ أحد من المصوتين على بيان ما يدل عليه موضوع التصويت، بيد أن هذه الصيغة سحرت جميع الناس، فكانت حميًا، وكانت نشوة، والناس قالوا إن عهد الفضيلة والسعادة قد فتح في الأرض، ويأبى خصم أحد الجمهوريين أن يلقب هذا الجمهوري بالاتحادي فيرى هذا الجمهوري في ذلك سبة فظيعة، وكان الناس إذا ما تلاقوا في الشوارع سلم بعضهم على بعض بقوله: أحييك بتحية الجمهورية الاتحادية، ثم يبدأ بترتيل أناشيد الجموح المقدس واستقلال الجندي، وماذا كان معنى "الجمهورية الاتحادية"؟ ذهب بعضهم إلى أنه يعني تحرر الولايات وقيام نظم على نمط نظم الولايات المتحدة أو اللامركزية الإدارية، ورأى آخرون أن معنى ذلك هو إبطال كل سلطة والبدء بالتصفية الاجتماعية الكبرى في أقرب وقت، وكان اشتراكيو برشلونة والأندلس يدعون إلى سيادة البلديات فيذهبون إلى قيام عشرة آلاف مدينة مستقلة في إسبانية غير منقادة لسوى نفسها، وذلك مع إلغاء الجيش والشرطة، والناس لم يلبثوا أن رأوا الفتنة قد اشتعلت في ولايات الجنوب فسرت من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية، وكانت كل بلدية إذا ما أعلنت استقلالها بدأت بتخريب أسلاك البرق والخطوط الحديدية قطعًا لكل صلة بجاراتها وبمدريد، ولم تكد ترى كورة خبيثة لم تصنع لنفسها

مطبخًا مستقلًا، وهكذا فتح النظام الاتحادي مجالًا للنظام الإقطاعي الجائر الحارق القاتل، وهكذا احتفل في كل مكان بأعمال داعرة دامية".

وأما ضعف تأثير البراهين في روح الناخبين فلا يجهله سوى الذين لا علم لهم بما يقع في الاجتماعات الانتخابية حيث يتبادل الناس ضروب التوكيد والشتائم واللطمات لا المعقولات، وإذا ساد السكون ذات ثانية فلأن أحد الحضور العسر يخبر بأنه سيضع المرشح سؤالًا من الأسئلة المضنية التي يسر بها المستمعون على الدوام، غير أن رضا المعارضين لا يدوم زمنًا طويلًا، فلا تعتم نباحات مخالف السائل أن تخنق صوته، ويمكن عد الأمر الآتي الذي أنقله من الجرائد اليومية من بين مئات الأمور المماثلة مثالًا للاجتماعات العامة، وهو:

"إن الناظم قد رجا من الحاضرين أن يعينوا رئيسًا، فهبت العاصفة، وقفز الفوضويون إلى الميدان حتى يستولوا على المكتب عنوة، ويدافع الاشتراكيون عنه بعنف، وكان اصطدام، وكان تنابذ بالتجسس وببيع الضمائر إلخ... ويخرج أحد الحضور من القاعة مخدوش العين.

"ويستقر أمر المكتب في نهاية الأمر بين الشعب وتتم الرئاسة للرفيق س.

"ويحمل الخطيب على الاشتراكية بسرعة فيقاطعه هؤلاء بقولهم صاخبين:

"أنت أبله! أنت لص! أنت نذل!" وما إلى ذلك من الأوصاف التي يجيب الرفيق س.. عنها بعرض نظرية قائلة إن الاشتراكيين من "الحمقى" أو من "المهرجين".

"... عقد الحزب الموالي لألمانية مساء أمس اجتماعًا عظيمًا في قاعة التجارة الواقعة بشارع فوبورغ دوتانبل، وذلك تمهيدًا لعيد العمال في اليوم الأول من شهر مايو، وكانت كلمة النظام فيه: "الهدوء والسكون".

"ويصف الرفيق ج... الاشتراكيين بالحمقى والمخادعين.

"وما كادت تانك الكلمتان تخرجان من فيه حتى تبادل الخطباء والحضور الشتائم واشتركت الكراسي والمقاعد والموائد في الخصام إلخ، إلخ".

ولا تظن أن طراز النقاش ذلك خاص بطبقة معينة من الناخبين، وأنه نتيجة مقام هذه الطبقة الاجتماعي، فالنقاش يكتسب ذلك الشكل بسهولة في جميع المجالس العقلية، ولو كانت مؤلفة من مثقفين فقط، وقد أثبت أن الناس في الجماعة يتماثلون في مزاجهم النفسي، ولدينا دليل على ذلك في كل حين، وإليك، مثالًا على ذلك، نبذة مما وقع في اجتماع مؤلف من طلاب دون غيره.

"كان الهياج يزيد كلما أرخي الليل سدوله، ولا أعتقد أن خطيبًا استطاع أن يقول جملتين من غير أن يعترض له، وكنت تسمع في كل ثانية صراخًا يعلو من هنا أو هنالك أو من جميع الجهات، وكنت تسمع هتافًا، وكنت تسمع صفيرًا، وكانت تقع بين جميع الحاضرين مناقشات عنيفة، وكانت العصي تهز مهددة، وكان الصراخ يعقب المقاطعين فيقال: "إلى الباب! إلى المنبر!".

"ويصف مسيوس.. الاجتماع بالقبيح والذل والمسيخ والساقط والملوث واللئيم، ويصرح بأنه يريد تقويضه إلخ، إلخ...".

وهنا يسأل: كيف يمكن الناخب أن يكون رأيه في مثل تلك الأحوال؟ ولكن وضع مثل هذا السؤال يعنى انخداعًا غريبًا في مقدار ما تتمتع به الجماعة من الحرية، فما لدى الجماعات من آراء فيكون مفروضًا عليها، وليس عند الجماعات من آراء مبرهنة، وتظل تلك الآراء وأصوات الناخبين قبضة اللجان الانتخابية التي يكون زعماؤها في الغالب من تجار الخمر الكثيري النفوذ لدى من يبيعونهم بنسيئة من العمال، قال أحد أنصار الديموقراطية المقاديم مسيو شيرير: "أتعلمون ما هي لجنة الانتخابات؟ إنها مفتاح نظمنا وأهم جزء في جهازنا السياسي، واللجان هي التي تهيمن على فرنسة في الوقت الحاضر(25)".

(25) يتألف من اللجان أشد ما في سلطان الجماعات من خطر مرهوب، والجماعات هي، بالحقيقة، أكثر ما يكون عدم شخصية، وهي أعظم وجوه الطغيان استبدادًا، والزعماء الذين يوجهون اللجان إذ يتكلمون ويسيرون باسم زمرة تجدهم طليقين من كل مسؤولية فيبيحون لأنفسهم كل شيء، وما كان ليدور في خلد أقسى الطغاة أن يصدر مثلما تصدره اللجان الثورية من أوامر السجن والقتل؛ ومن قول باراس إنها قتلت واحدًا من كل عشرة في مجلس العهد مقطعة أوصال هذا المجلس تقطيعًا منظمًا، وظل روبسبير سيدًا مطلقًا ما استطاع أن يتكلم باسمها، فلما انفصل عنها هذا الجبار المرهوب، عن عجب، كان ذلك نذير هلاكه، والحق أن حكم الجماعات هو حكم اللجان، ومن ثم حكم الزعماء، ولا يعرف الإنسان استبدادًا أشد منه.

ولا يصعب التأثير في الجان مع ذلك ما دام المرشح مقبولًا وذا موارد كافية، فقد اعترف المتبرعون أن ثلاثة ملايين فرنك كفت لانتخاب الجنرال بولانجيه في دوائر كثيرة.

تلك هي روح الجماعات الانتخابية، وهي مماثلة لروح الجماعات الأخرى، وهي ليست بالأحسن منها ولا بالأردأ.

ولا أستنبط مما تقدم أية نتيجة ضد التصويت العام، ولو فوض إلى أن أقرر مصيره لأبقيته كما هو لأسباب عملية ناشئة عن بحثنا في روح الجماعات نعرضها بعد أن نذكر مساوئه.

إن مساوى التصويت العام هي من الوضوح ما لا يجوز إنكارها معه، ومما لامراء فيه أن الحضارات هي من صنع أناس قليلين من ذوي النفوس العالية تتألف منهم ذروة هرم تسع طبقاته كلما نقصت القيمة الذهنية فتمثل هذه الطبقات طبقات الشعب البعيدة الغور، ومما لا مراء فيه أن عظمة الحضارة لا تناط بتصويت العناصر الدنيا التي لا تنم على غير العدد، وما لا مراء فيه أيضًا أن تصويت الجماعات ذو خطر في الغالب، فقد أوجب غزو الأجنبي لبلادنا عدة مرات، ولو تتم النصر للاشتراكية لكلفتنا أهواء السيادة الشعبية ثمنًا أغلى من ذلك بدرجات لا ريب.

بيد أن تلك الاعتراضات الوجيهة نظريًا تفقد قوتها عمليًا إذا ما ذكر ما للآراء التي تتحول إلى عقائد من سلطان قوي، أجل، إن العقيدة القائلة بسيادة الجماعات لا يدافع عنها فلسفيًا كما أنه لا يدافع عن العقائد

الدينية في القرون الوسطى، غير أن لتلك العقيدة من القدرة المطلقة في أيامنا مثل ما كان لهذه العقائد في غابر الأزمان، وتلك العقيدة لا تهاجم، إذن، كما تعذر مهاجمة عقائدنا الدينية فيما مضى، ولنفترض أن أحد أحرار الفكر نقل بقدرة سحرية إلى القرون الوسطى، أفتظنون أنه يحاول إذ ذاك مناهضة ما يكون أمامه من السلطان المطلق للمبادئ الدينية؟ وهو إذا ما مثل أمام قاض يريد حقه لما عزى إليه من معاهدته الشيطان أو ملازمته مجتمع سحرة في الليل فهل يفكر آنئذ في الجدال حول وجود الشيطان أو وجود مجتمع سحرة في الليل؟ ولا جدال مع معتقدات الجماعات كما أنه لا جدال مع العواصف، وما لعقيدة التصويت العام من السلطان فيعدل سلطان العقائد الدينية في الماضي، ويذكرها الخطباء والكتاب بما لم يعرفه لويس الرابع عشر من الاحترام والتملق، ويجب لذلك أن يسار معها كما يسار مع جميع العقائد الدينية، والزمان وحده هو الذي يعمل فيها عمله.

ومن غير المفيد محاولة زعزعة تلك العقيدة ما وجدت أسباب ظاهرة تؤيدها، ومن الإصابة قول توكفيل: "لا يؤمن بعض الناس ببعض في أزمنة المساواة لتشابههم، غير أن هذا التشابه يمنحهم ثقة لا حد لها بحكم الجمهور تقريبًا، وذلك لأنهم لا يرون من المعقول ألا تكون الحقيقة بجانب العدد الأكبر، ومن هذا العدد أناس تساووا بصيرة".

والآن أيجب أن يفترض أن الانتخاب المقصور على أصحاب الأهليات يصلح تصويت الجماعات؟ لا أسلم بهذا القول ثانية، وذلك للأسباب التي ذكرتها

فيما تقدم عن الانحطاط الذهني في الجماعات مهما كان تركيبها، وتراني أكرر قولي إن الناس في الجماعة يتساوون على الدوام، ولا يكون تصويت أعضاء الأكاديمية الأربعين في المسائل العامة أفضل من تصويت أربعين سقاء فيها، ولا أعتقد أن أي صوت من الأصوات التي وقع اللوم عليها في الاقتراع العام لإعادة الإمبراطورية مثلًا يختلف عما حدث لو كان المصوتون قد جمعوا من رجال العلم والأدب فقط، فلا يمنح كون الرجل عارفًا باليونانية أو الرياضيات أو كونه معماريًا أو بيطارًا أو طبيبًا أو محاميًا هذا الرجل بصيرة خاصة في المسائل العاطفية، ومن المعلوم أن معظم رجال الاقتصاد عندنا من المثقفين والأساتذة وأعضاء الأكاديمية، أفتجدهم متفقين على مسئلة عامة كنظام الحماية مثلًا؟ ألا إن جميع الجهالات تتساوى أمام جميع المسائل الاجتماعية المملوءة بما لا حد له من المجهولات والتي يسيطر عليها المنطق الديني أو المنطق العاطفي.

إذن، لو كانت جماعة الناخبين مؤلفة من أناس مكتظين علمًا ما كانت أصواتهم أحسن من أصوات الناخبين في الوقت الحاضر، وهم يهتدون على الخصوص بمشاعرهم وروح حزبهم، ولا تزول بذلك واحدة من المصاعب الحاضرة، ونعاني بذلك طغيان الطوائف الثقيل لا ريب.

وتصويت الجماعات، عامًا كان أو محصورًا، وجمهورية كانت البلاد التي تقول به أو ملكية، وفي فرنسة طبق أو في بلجيكة أو في بلاد اليونان أو في البرتغال أو في إسبانية، تجده متشابهًا في كل مكان، وهو يعبر في الغالب عن

آمال العرق واحتياجاته تعبيرًا لا شعوريًا، ومعدل الناخبين المتوسط في كل أمة ينم على المعدل المتوسط لروح عرقها، ويكاد هذا المعدل يكون واحدًا في الجيل بعد الجيل.

وهكذا نعود مرة أخرى إلى ذلك المبدأ الأساسي: إلى مبدأ العرق الذي لاقيناه في الغالب، وإلى المبدأ الآخر المشتق من الأول والقائل إن شأن النظم والحكومات في حياة الأمم ضعيف إلى الغاية، والأمم مسيرة بروح عرقها على الخصوص، أي بالرواسب الموروثة التي تتألف تلك الروح من مجموعها، والشعب وشبكة الضرورات اليومية هما السيدان الخفيان اللذان يهيمنان على مصايرنا.

الفصل الخامس المجالس البرلمانية

الجماعات البرلمانية تمثل معظم الصفات المشتركة بين الجماعات المتباينة غير المغفلة - سذاجة الآراء - قابلية التلقن وحدود هذه القابلية – الآراء الثابتة والآراء المتحولة – السبب في أن التردد هو الغالب - شأن الزعماء - سبب نفوذهم - هم السادة الحقيقيون للمجالس التي تكون الأصوات فيها أصوات أقلية صغيرة - ما يمارسونه من السلطان المطلق - عناصر فنهم الخطابي - الألفاظ والصور - الضرورة النفسية تقضي بأن يكون الزعماء من المؤمنين القصيرى البصر على العموم - يتعذر على الخطيب بلا نفوذ أن يحمل الآخرين على قبول براهينه - غلو المشاعر الطيبة أو السيئة في المجالس - آليتها في بعض الأحيان - جلسات مجلس العهد - الأحوال التي تفقد المجالس فيها صفات الجماعات - تأثير المتخصصين في المسائل الفنية - محاسن النظام البرلماني ومساوئه في جميع البلدان - هو ملائم لاحتياجات العصر الحاضر، ولكنه يؤدي إلى تبذير الأموال وتضييق جميع الحريات بالتدريج - خلاصة الكتاب.

المجالس البرلمانية تمثل الجماعات المتباينة غير المغفلة، وهذه المجالس تتشابه كثيرًا بأوصافها على ما في جمعها من اختلاف بحسب الأزمنة والأمم، وهنالك يبدو تأثير العرق في تخفيف تلك الصفات أو إفراطها، لا في

منع ظهورها، وتجد كبير شبه بين مناقشات المجالس البرلمانية وتصويتها في أشد البلدان اختلافًا كمجالس بلاد اليونان وإيطالية والبرتغال وإسبانية وفرنسية وأمريكة، وتماثل المصاعب التي تلاقيها الحكومات في هذه البلدان.

والنظام البرلماني هو مع ذلك خلاصة خيال الأمم المتمدنة الحديثة، وهو يعبر عن الفكر الخاطئ نفسيًا والمسلم به عمومًا والقائل إن أناس كثيرين إذا ما اجتمعوا غدوا أقدر من أناس قليلين على إصدار قرار حكيم مستقل في موضوع ما.

وفي المجالس البرلمانية تجد الصفات العامة المميزة للجماعات من بساطة الأفكار وسرعة الغضب وقابلية التلقن وغلو المشاعر ونفوذ الزعماء الكبير، بيد أن تركيب الجماعات البرلمانية الخاص يوجب اتصافها ببعض الفروق، وهذا ما ننص عليه بعد قليل.

وبساطة الآراء هي من أبرز صفات الجماعات البرلمانية، وتجد لدى جميع الأحزاب في الأمم اللاتينية على الخصوص ميلًا ثابتًا إلى حل أشد المعضلات الاجتماعية تعقدًا بأشد المبادئ المجردة بساطة وبقوانين عامة يرى تطبيقها على جميع الأحوال، ومن الطبيعي أن تختلف المبادئ باختلاف الأحزاب، ولكن وجود الأفراد في جماعة يحفز هؤلاء الأفراد دومًا إلى المغالاة في قيمة تلك المبادئ والذهاب إلى أقصى ما تؤدي إليه من النتائج، والبرلمانات أيضًا مثل الآراء المتطرفة بوجه خاص.

وأكمل مثال على بساطة المجالس مما حققه يعاقبة ثورتنا الكبرى، فاليعاقبة كلهم إذ كانوا من النظريين والمناطقة، وأدمغتهم إذ كانت مشحونة بالكليات المبهمة، صرفوا همهم إلى تطبيق المبادئ المقررة غير مبالين بالحوادث، فكان من الصواب أن قيل إنهم جاوزوا الثورة الفرنسية من غير أن يروها، وهم لما كان لديهم من قليل معتقدات خيل إليهم تجديد المجتمع بأسره والرجوع بالحضارة إلى الطور الذي هو أقدم من دور التطور الاجتماعي بمراحل، وهم قد وجد ما عندهم من الوسائل لتحقيق هذا الخيال مصطبغًا بصبغة البساطة المطلقة أيضًا، وهم قد اقتصروا بالحقيقة على تقويض جميع العوائق التي كانت تزعجهم بعنف، على أن الجميع، من جيوندیين ومونتانيار وترميدوريين إلخ، كان مشبعًا من تلك الروح.

والجماعات البرلمانية شديدة التلقن، والتلقين يصدر عن الزعماء النافذين كما في كل وقت، غير أنك ترى لقابلية التلقن في المجالس البرلمانية حدودًا شديدة الوضوح جديرة بالذكر.

تجد لدى كل عضو من أعضاء المجلس آراء مقررة في المسائل المحلية فلا يزعزعها أي برهان كان، وما كانت مواهب ديموستين لو بعث لتغير صوت نائب في بعض المسائل التي تعبر عن رغبات الناخبين النافذين كنظام الحماية أو امتياز مقطري المسكرات، فما صدر عن هؤلاء الناخبين من

تلقين سابق هو من القوة ما يوجب إبطال عمل كل تلقين آخر وما يؤدي إلى ثبات مطلق في الرأي(26).

ويتوارى ثبات الرأي في المسائل العامة كما سقاط وزارة أو تقرير ضريبة إلخ، ويكون لتلقينات الزعماء تأثير، ولكن هذا لا يحدث كما في الجماعة العادية من كل وجه، فلكل حزب زعماؤه الذين يمارسون نفوذًا متساويًا في بعض الأحيان، فتتجاذب النائب تلقينات متناقضة لهذا السبب فيغدو كثير التردد حتمًا، ومن ذلك أنك ترى في الغالب اقتراعًا متهادمًا في ربع ساعة بإضافة مادة إلى القانون المسنون ناقضة له، كأن يوضع قانون يحرم على أرباب الصناعات اختيار العمال وتسريحهم وأن يلغَى هذا الحكم بتعديل لاحق.

وبذلك نفسر سبب إبداء المجلس في كل دورة اشتراعية آراء كثيرة الثبات وأخرى كثيرة التقلب، وإذا نظرت إلى الأساس وجدت التقلب يسود المسائل

(26) لا مراء في أن ملاحظة أحد أعضاء البرلمان الإنكليزي الآتية تطبق على تلك الآراء المقررة سابقًا فتغدو ثابتة بفعل الضرورات الانتخابية، قال ذلك العضو القديم: "تراني في الخمسين سنة التي قضيتها في وستمنستر قد سمعت ألوف الخطب فيغير القليل منها رأيي، ولكن واحدة منها لم تغير صوتي".

العامة لكثرتها ووجدت أن الخوف من الناخب هو الذي يملي ذلك التقلب، فللناخب تلقين خفى ينتهي إلى موازنة نفوذ الزعماء على الدوام.

والزعماء مع ذلك هم السادة الحقيقيون في المناقشات التي لا يكون لأعضاء المجلس فيها آراء مقررة من قبل.

وضرورة الزعماء أمر واضح ما دمنا نجدهم في جميع البلدان حاملين لاسم رؤساء الأحزاب، وأولئك الزعماء هم سادة المجالس الحقيقيون، ولا غنية للناس في الجماعة عن سيد، ولهذا لا تمثل أصوات المجالس غير آراء أقلية صغيرة على العموم.

وأعود فأقول إن من القليل أن يؤثر الزعماء ببراهينهم وإن من الكثير أن يؤثروا بنفوذهم، والزعماء إذا ما جردوا من نفوذه بفعل إحدى الأحوال أصبحوا غير مؤثرين.

ونفوذ الزعماء شخصي، وهو لا يرتبط في الاسم ولا في الشهرة، وقد تكلم مسيو جول سيمون عن أكابر الرجال في مجلس سنة **1848** الذي كان عضوًا فيه فأتى بأمثلة طريفة على ذلك، قال جول سيمون:

"لم يكن لويس نابليون شيئًا مذكورًا قبل أن يصبح صاحب الحكم.

"وصعد فيكتور هوغو المنبر فلم يكتب له نجاح، وقد استمع إليه كما كان يستمع إلى فيليكس بايا، ولم يهتف له مثله، ومن قول قولًا بل لي، وذلك حين حديثه عن فيليكس بايا: "إني لا أحب أفكاره، ولكنه من أعاظم كتاب فرنسة وأكبر خطبائها"، ولم يكن لذي النفس القوية النادرة إدغار

كينه شأن يذكر، وإدغار كينه هذا أتى عليه حين كان فيه ذا حظوة لدى الشعب قبل افتتاح المجلس، فلما دخل هذا المجلس لم يبق له شيء من ذلك.

"والمجالس السياسية هي بقعة الأرض التي يضعف الشعور فيها بنور العبقرية أكثر ما في سواها، وفي المجالس السياسية لا يبالي بغير البلاغة الملائمة لمقتضى الزمان والمكان وبغير الخدم التي تؤدي إلى الأحزاب، لا إلى الوطن، وما حدث من تحية للإمارتين في سنة **1848** ولتيار في سنة **1871** فكان وليد المصلحة الملحة الشديدة، فبعد أن زال الخطر شفي من الشكران والفزع معًا".

نقلت ذلك القول لما اشتمل عليه من وقائع، لا من أجل ما احتواه من شروح هزيلة نفسيًا، والجماعة إذا ما عرفت للزعماء ما قدموه من الخدم إلى الوطن أو إلى الأحزاب فقدت صفة الجماعة، فالجماعة تعاني نفوذ الزعيم من غير أن يدخل في سلوكها ذلك أي حساب لمنفعة أو معروف.

والزعيم إذا كان ذا نفوذ كاف تمتع بسلطان مطلق تقريبًا، وليس بمجهول أمر ذلك التأثير العظيم الذي زاوله نائب مشهور في سنوات كثيرة بفضل نفوذه ثم خسره، ذات حين، على أثر بعض الحوادث المالية، وقد كانت إشارة بسيطة منه تكفي لإسقاط الوزارات، وإليك كيف أوضح أحد الكتاب مدى تأثيره في الأسطر الآتية:

"إننا مدينون لمسيوك... باشتراء تونكين بثلاثة أضعاف ما كانت تساويه، وبأننا لم نضع في مدغشقر سوى قدم غير ثابتة، وبأننا حرمنا إمبراطورية في نيجر الأدنى، وبأننا أضعنا مقامنا الممتاز في مصر، ألا إن نظريات مسيوك... أفقدتنا من الأملاك أكثر مما أفقدتنا إياه بلايا نابليون الأول".

ولا ينبغي لنا أن نكثر من لوم ذلك الزعيم، فهو، وإن كلفنا ثمنًا غاليًا كما هو واضح، لم يقم معظم نفوذه على غير اتباعة الرأي العام الذي لم يكن وضعه تجاه الاستعمار كما هو عليه في هذه الأيام، ومن النادر أن يسبق الزعيم الرأي العام، والزعيم يقتصر على انتحال أغاليط الرأي العام في الغالب.

ووسائل الإقناع التي يتخذها الزعماء بعد النفوذ هي العوامل التي أحصيناها آنفًا غير مرة، والزعيم لكي يستعمل هذه الوسائل بحذق لابد له من أن ينفذ في روح الجماعات نفوذًا غير شعوري على الأقل، وأن يعرف كيف يخاطبها، وأن يتم على الخصوص ما للألفاظ والصيغ والصور من تأثير ساحر، ولابد له من أن يكون قابضًا على ناصية فصاحة خاصة مؤلفة من توكيدات عنيفة وصور مؤثرة تحيط بها براهين مجملة، وفصاحة من هذا الطراز مما يشاهد في جميع المجالس، حتى في البرلمان الإنكليزي الذي هو أكثر المجالس اتزانًا.

قال الفيلسوف الإنكليزي مين: "لا يمكننا أن نقرأ باستمرار مباحثات مجلس النواب الذي تقوم جميع مناقشاته على تبادل الكليات الضعيفة

والشخصيات الصائلة، ولهذا النوع من الصيغ العامة تأثير كبير في خيال الديموقراطية الصرفة، ومما يسهل في كل وقت أن تحمل جماعة على قبول طائفة من المزاعم العامة التي تعرض بعبارات مؤثرة وإن لم تحقق قط، وإن لم يكتب لها أي تحقيق في المستقبل على ما يحتمل".

ولا مبالغة في أهمية "العبارات المؤثرة" المذكورة آنفًا، وقد أسهبنا غير مرة في بيان القدرة الخاصة للألفاظ والصيغ المنتخبة التي تثير صورًا مؤثرة، والجملة الآتية التي نقتطفها من خطبة زعيم في المجالس هي نموذج حسن لذلك:

"يوم تنقل السفينة الواحدة إلى أرض المنفى الحمية محترف السياسة المريب والفوضوي السفاك تبصرهما يتحادثان فيكونان مظهرين متمين لنظام اجتماعي واحد".

والصورة التي أثيرت على ذلك الوجه واضحة جالبة للنظر، وقد شعر جميع خصوم الخطيب بأنهم مهددون بها، فأبصروا من فورهم البلاد الحمية والسفينة التي قد تنقلهم إليها، وذلك لأنهم من محترفي السياسة الذين لم تحدد فرقتهم، وهم يشعرون بالخوف الأصم الذي كان رجال العهد يشعرون به، أي الرجال الذين كانت المقصلة تهدد رقابهم بفعل خطب روبسبير المبهمة فيذعنون له عن خوف على الدوام.

ومن مصلحة الزعماء أن يأتوا بمبالغات لا يصدقها العقل، وقد استطاع الخطيب الذي استشهدت بعبارته الآنفة الذكر أن يوكد من غير أن يثير

كبير احتجاجات أن أرباب المصارف والقسوس كانوا يستأجرون قاذفي القنابل وأن مديري الشركات الكبرى المالية يستحقون مثل عقوبات الفوضويين، فوسائل مثل هذه مما يؤثر في الجماعات دومًا، وليس التوكيد تطرفًا، وليس التقريع تهديدًا، ولا شيء، يرهب السامعين مثلهما مع ذلك، والسامعون يخشون أن يعدوا من الخائنين أو من الشركاء في الذنب إذا ما احتجوا على ذلك.

وتلك البلاغة الخاصة قد سيطرت على جميع المجالس كما قلت منذ هنيهة، وهي تشتد في الأدوار الحرجة، ولنا في مطالعة خطب كبار الخطباء أيام الثورة الفرنسية فوائد كثيرة من هذه الناحية، وهؤلاء كانوا يرون أن يقطعوا كلامهم في كل ثانية تشنيعًا للجرم وتعظيمًا للفضيلة، ثم كانوا يصبون اللعنات على الطغاة ويقسمون على العيش أحرارًا أو يموتوا، وكان الحضور يقفون ويصفقون هائجين، فإذا ما هدءوا جلسوا.

وقد يكون الزعيم ذكيًا متعلم في بعض الأحيان، ولكن ضر هذا يكون أكبر من نفعه له على العموم، وذلك لأن الذكاء بإثباته تعقد الأمور وقبوله الإيضاح والتفهم يؤدى إلى التسامح ويثلم ما هو ضروري للرسل من حدة العقائد وشدتها، وكان كبار الزعماء في كل جيل، ولا سيما زعماء الثورة الفرنسية، محدودي العقل وكانوا ذوي تأثير بالغ مع ذلك.

وانظر إلى خطب روبسبير الذي كان أشهرهم تقع في حيرة من عدم ارتباطها، وأنت حين تقرؤها لا تجد فيها إيضاحًا شافيًا لما اتفق لهذا الجبار القوى من شأن عريض.

"هي موارد مطروقة وشقشقة فصاحة تعليمية وثرثرة ثقافة لاتينية اتخذتها نفس طفلية ساذجة يلوح أنها تقتصر على الهجوم أو الدفاع على قول التلاميذ: "هلم إليّ إذن!"، هي عاطلة من الفكر والتدبير، هي لا لون لها، هي ضجر في زوبعة، والقارئ إذا ما فرغ منها فعل مضطرًا كما كان يفعل الرجل الأنيس كاميل ديمولان فقال: أفّ!".

ومن المفزع أن يفكر في القوة التي يمن بها الاعتقاد القوى الممزوج بضعف العقل على الرجل في النفوذ، وهذه الأحوال ضرورية مع ذلك للاستهانة بالعوائق ومضاء العزيمة، والجماعات تعرف بالغريزة من تحتاج إليهم من السادة في أولئك المؤمنين الصارمين.

ونجاح الخطبة في المجلس البرلماني رهين بنفوذ الخطيب وحده تقريبًا، لا بالأدلة التي يدلى بها.

ولاحظ للخطيب المجهول الذي يأتي بخطبة مملوءة بأحسن البراهين، وبالبراهين فقط، في أن يصغى إليه على الأقل، وإليك كيف يصف النائب السابق مسيو ديكوب حال المشترع العاطل من النفوذ في الأسطر الآتية:

"إذا ما استوى ذلك المشترع على المنبر أخرج من محفظته إضبارة وبسطها أمامه مرتبة وبدأ مطمئنًا.

"هو يعلل نفسه بأن يدخل إلى روح السامعين ما يجيش في صدره من الاعتقاد، هو قد وزن براهينه غير مرة، هو قد أتخم بالأرقام والأدلة، هو واثق بأن يكون الحق في جانبه، هو يرى أن كل معارضة أمام بيانه الساطع لا تجدي نفعًا، هو يبدأ معتمدًا على صواب قوله وعلى نية زملائه الذين لا يطلبون غير الركوع أمام الحقيقة.

"هو يتكلم، ولسرعان ما تأخذه الدهشة من اضطراب القاعة ومن الضجة المزعجة التي تتصاعد، وكيف لا يسود السكون؟ وما هو السبب في هذا الإعراض العام؟ وفيم يفكر أولئك الذين يتحادثون فيما بينهم؟ وما هو الحافز السريع الذي يحمل ذلك النائب على مغادرة مكانه؟

"ويعلو القلق جبينه ويقطب ويسكت، ويشجعه الرئيس فيعود إلى الكلام بصوت عال، ويزيد عدم الاستماع إليه فيعلو صوته ويضطرب، ويزيد الضوضاء حوله، فلا يسمع صوت نفسه ويسكت مرة أخرى، ثم يخشى أن يؤدي صمته إلى المطالبة بالإقفال فيعود إلى الكلام فيغدو الصخب أمر لا يطاق".

والمجالس البرلمانية إذا بلغت درجة معينة من الهياج أصبحت مماثلة للجماعات المتباينة العادية، فاتصفت مشاعرها بالتطرف، وهنالك تنطلق إلى أعمال البطولة أو إلى أسوأ المظالم، وهنالك لا يكون الفرد هو إياه فيوافق على أشد التدابير مناقضة لمصالحه الشخصية.

ويدلنا تاريخ الثورة الفرنسية على درجة ما تبلغه المجالس من عدم الشعور ومن معاناة التلقينات المناقضة لمصالحها، ومن ذلك أن من التضحيات العظيمة ما كان من تنزل الأشراف عن امتيازاتهم غير مترددين في ليلة المجلس التأسيسي الشهيرة، ومن ذلك أن مما كان يهدد رجال مجلس العهد بالموت تنزلهم عن حصانتهم وأنهم تنزلوا عنها بالفعل غير خائفين من إبادة بعضهم لبعض، وذلك مع علمهم أن الإعدام سيكون نصيبهم في الغد كما هو نصيب زملائهم الآن، وهم، وقد بلغوا تلك الدرجة من الآلية التامة التي وصفتها فيما تقدم، لم يحل أي عامل دون إذعانهم للتلقينات التي كانت تنومهم، ونرى العبارة الآتية التي نقتطفها من مذكرات أحدهم، بلوفارين، قاطعة في ذلك، وتلك العبارة هي: " أننا في الغالب لم نكن لنريد المقررات التي نلام عليها قبل اتخاذها بيوم أو يومين، وإنما الأزمة وحدها هي التي كانت تفرضها"، فلا قول أكثر صوابًا من هذا القول.

وقد تجلت ظاهرات عدم الشعور عينها في جميع جلسات مجلس العهد الهائجة، قال تاين:

"لقد أجاز رجال مجلس العهد وتمنوا ما كانوا يكرهونه من الجرائم وقتل الأبرياء وسفك دماء الأصدقاء فضلًا عن الجهالات والحماقات، وفي مجلس العهد انضم اليمين إلى الشمال فأجمع هذا المجلس وهو يهتف هتافًا شديدًا على إرسال رئيسه الطبيعي ووجد الثورة الفرنسية وقائدها دانتون إلى المقصلة، وفي مجلس العهد انضم اليمين إلى الشمال فوافق هذا المجلس وهو

يهتف هتافًا شديدًا على أسوأ مراسيم الحكومة الثورية، وأجمع مجلس العهد، وهو يهتف هتاف الإعجاب والحماسة، وهو يعرب عن عظيم ميله إلى كولودير بوا وكوتون وروبسبير، على تجديد انتخاب الحكومة السفاحة تجديدًا غريزيًا مكررًا، وعلى شد عضد هذه الحكومة التي كان البلين (السهل) يمقتها لأنها سفاحة والتي كان المونتان (الجبل) يمقتها لأنها كانت تحصده، وهكذا أعان البلين والمونتان، أي الأكثرية والأقلية، على انتحارها في نهاية الأمر، وهكذا مد جميع مجلس العهد عنقه في اليوم الثاني والعشرين من شهر بريريال (الشهر التاسع من السنة الجمهورية)، وهكذا مد مجلس العهد عنقه أيضًا في الربع الأول من الساعة التي عقبت خطبة روسبير في اليوم الثامن من شهر ترميدور (الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية)".

وقد يبدو ذلك الوصف قاتمًا، ولكنه صحيح على كل حال، ومثل تلك الصفات ما تبديه المجالس البرلمانية التي تهيج وتنوم بما فيه الكفاية، فتغدو هذه المجالس قطيعًا متحركًا سائرًا مع كل دافع، ومن أبرز الأوصاف ما وصف به مجلس سنة **1848** عضو البرلمان مسيو سبولر الذي لا ريب في إيمانه الديموقراطي فأنقله من المجلة الأدبية، ففي هذا الوصف تجد جميع المشاعر المتطرفة التي ذكرت وجودها في الجماعات، وجد ذلك الإفراط في التقلب الذي ينتقل به بين ثانية وثانية إلى أشد المشاعر اختلافًا، قال مسيو سبولر:

"أسفرت ضروب الانقسام والحسد والارتياب والثقة العمياء وما لا حد له من الآمال عن سوق الحزب الجمهوري إلى هلاكه، وما كان يساوي سذاجة هذا الحزب وسلامة نيته غير تحذره الشامل، وهذا الحزب كان لا يفقه لشرعية الأمور ولا للنظام معنى، وكان كالفلاح والوليد في المخاوف والأوهام، فيتبارى ما في الريفي والصبيّ من السكون والجزع ومن القسوة والدعة، وهذا هو شأن المزاج الذي لم يذهب والتربية التي لم توجد، ولا يحيرهما شيء ويقلقان من كل شيء، وها يرتعشان ويفزعان ويقدمان ويشجعان فيقتحمان النيران، ولكنهما أمام الظل يرتدان.

"وهما لا يعرفان المعاولات ولا ما بين الأمور من علاقات، وهما سريعان في الفتور سرعتهما في الحماسات، وهما موضع كل ذعْر، وهما في علو أو هبوط، ولا يكونان فيما يجب من مرتبة أو ما يناسب من منزلة، وهما أميع من الماء فينعكس عليهما جميع الألوان، وتراها في جميع الأشكال يبدوان، فما رجاؤك في حكومة تقوم عليهما؟".

ومن حسن الحظ أن كانت جميع الأوصاف التي ذكرنا وجودها في المجالس البرلمانية لا تبدو على الدوام، وهذه المجالس لا تكون من الجماعات إلا في بعض الأوقات، ويحافظ أفراد هذه المجالس على شخصياتهم في غير حالة، فتكون القوانين الفنية التي تصدر عنها صالحة، أجل، إن هذه القوانين الفنية يعدها متخصص في سكون غرفته، وإنها من عمل الفرد بالحقيقة، لا من عمل المجالس، وإنها أحسن القوانين بحكم الطبيعة، وإن هذه

القوانين لا تكون مضرة إلا إذا تسربت فيها سلسلة من التعديلات السيئة فجعلتها من صنع الجماعة، وإن عمل الجماعة أحط من عمل الشخص المنفرد دومًا وفي كل مكان، وإن المتخصصين وحدهم هم الذين ينقذون المجالس من اتخاذ ما هو مشوش من التدابير، وإن هؤلاء المتخصصين إذ يغدون زعماء لحين لا تؤثر المجالس فيهم، وهم يصبحون في المجالس من المؤثرين.

وعلى ما في سير المجالس البرلمانية من مصاعب كثيرة ترى هذه المجالس أحسن وسيلة وجدتها الأمم لتحكم نفسها بنفسها وللتخلص من نير الاستبداد الفردي ما استطاعت، وتلك المجالس هي بالحقيقة مثال الحكومة الأقوم لدى الفلاسفة والمفكرين والكتاب والمتفننين والعلماء على الأقل، أي لدى أولئك الذين يؤلفون ذروة الحضارة.

ولا يتجلى في المجالس البرلمانية سوى خطرين، وهما تبذير الأموال الاقتساريُّ والتدرج إلى تقييد الحريات الفردية.

فأما الخطر الأول فهو نتيجة قسرية لمطاليب الجماعات الانتخابية وعدم تبصرها، وبيان الأمر أن عضوًا في المجلس إذا ما اقترح اتخاذ قرار ملائم في الظاهر للمبادئ الديموقراطية، كتعيين رواتب تقاعد لجميع العمال وزيادة رواتب عمال الطرق والمعلمين إلخ، لم يجرؤ النواب الآخرون، وقد ساورهم الخوف من الناخبين، أن يستخفوا بمصالح هؤلاء فيرفضوا التدبير المقترح، والنواب يعلمون على الخصوص أن ذلك يثقل كاهل الميزانية ويوجب فرض

ضرائب جديدة، والنواب يتعذر عليهم مع ذلك أن يترددوا في الموافقة على ذلك، والنواب بينما يبصرون بعد نتائج زيادة النفقات ولا يرون فيها ما يزعجهم شخصيًا تجدهم يرون اقتراب اليوم الذي تظهر فيه نتائج الرفض، أي اليوم الذي يضطرون فيه إلى المثول بين يدي الناخب.

وإلى تلك العلة الأولى في زيادة النفقات تضاف علة أخرى لا تقل عنها تجبرًا، وهي ضرورة منح النفقات ذات النفع المحلي المحض، فلا يجوز لنائب أن يرد ذلك لما تنم عليه من رغبات الناخبين أيضًا، ولا يستطيع أي نائب أن ينال ما تحتاج إليه دائرته الانتخابية إلا إذا وافق على ما يبديه زملاؤه من مطاليب تعديل مطاليبه.(27)

---

(27) عرضت مجلة الإيكونوميست (الاقتصادي) في عددها الصادر في 6 من أبريل سنة 1895 عرضًا طريفًا مقدار ما تكلفة النفقات ذات النفع الانتخابي الخالص، ولا سيما نفقات الخطوط الحديدية، فذكرت أن ربط قرية لانغاي، التي يسكنها 3000 شخص والتي تجثم على جبل، ببوى يكلف الدولة 15 مليون فرنك، وأن ربط قرية بومون التي يسكنها 3500 شخص بكاستل سارازان يكلف الدولة سبعة ملايين فرنك، وأن ربط قرية أوس التي يسكنها 523 شخصًا بقرية سيكس التي يسكنها 1200 شخص يكلف الدولة سبعة ملايين فرنك، وأن ربط براد بقرية أوليت التي يسكنها 747 شخصًا يكلف الدولة ستة ملايين فرنك إلخ، وبلغ مقدار المال الذي صوت به لإنشاء خطوط حديدية في سنة 1895 وحدها 90 مليون فرنك، مع عطل هذه الخطوط من أية فائدة للمصلحة العامة، وهنالك من النفقات التي أملتها مقتضيات الانتخاب ما لا يقل عن تلك أهمية، ومن ذلك أن قانون تقاعد العمال سيكلف الدولة في كل سنة ما لا يقل عن 165 مليون فرنك على حسب تقدير وزير المالية و800 مليون فرنك على حسب تقدير عضو الأكاديمية لروا بوليو، فالاستمرار على زيادة مثل هذه النفقات يؤدي إلى الإفلاس حتمًا، وإلى مرحلة الإفلاس وصل كثير من البلاد الأوربية كبلاد البرتغال واليونان وإسبانية وتركية، وكادت بلاد أوربية أخرى تنتهي إلى مثل ذلك، وهل في هذا ما يدعو إلى الاهتمام وقد رضى الجمهور بالتدريج، غير معترض، بحذف أربعة أخماس الفوائد التي يجب على مختلف البلاد أن يدفعها؟ ومن شأن هذه الإفلاسات الوثيقة إعادة التوازن إلى ميزانياتها موقتًا، وترى الحروب والاشتراكية والمنازعات الاقتصادية تهيئنا إلى مصائب كثيرة أخرى، فعلينا أن نرضى في دور الانحلال العام الذي دخلناه بالعيش يومًا فيومًا غير مبالين كثيرًا بالغد الذي يتفلت منا.

وأما ثاني الخطرين المذكورين آنفًا، وهو تقييد الحريات القسريُّ من قبل المجالس البرلمانية، فأقل وضوحًا في الظاهر وأشد حقيقة في الواقع، ومصدر هذا التقييد هو ما لا يحصيه عد من القوانين المحددة للحرية دومًا والتي لا تبصر البرلمانات نتائجها إلا بصرًا سيئًا بفعل روحها الساذجة التي تعتقد بها أنها مضطرة إلى الموافقة عليها.

ولا مفر من هذا الخطر، حتى إن إنكلترة نفسها لم توفق للإفلات منه مع أنها تتمتع بأكمل نظام برلماني ومع أن النائب فيها أكثر النواب استقلالًا عن الناخبين، ومما أثبته هربرت سبنسر في كتاب قديم له أنه لابد من أن يعقب زيادة الحرية الظاهرة نقص في الحرية الحقيقية، ويعود سبنسر في كتابه "الفرد والدولة" إلى هذا الموضوع فيعرب عما في نفسه حول البرلمان الإنكليزي كما يأتي:

"سلك الاشتراع تلك السبيل منذ ذلك الدور، وكثرت التدابير الاستبدادية بسرعة فأدت باستمرار إلى تقييد الحريات الفردية على وجهين وهما: أن أنظمة كثيرة توضع في كل سنة فتفرض على ابن البلاد من الزواجر ما كان طليقًا منه طلاقًا تامًا فيما مضى، وتكرهه على إنجاز أعمال كان يمكنه أن يقوم بها أو لا يقوم بها كما يشاء، وأنه فرض من الضرائب العامة، والضرائب المحلية على الخصوص، ما يثقل الكواهل شيئًا فشيئًا فيقيد حرية الفرد أكثر من قبل بتقليله مقدار مكاسبه التي يستطيع أن ينفقها كما يريد

وبزيادته مقدار ما يؤخذ من هذه المكاسب لينفق وفق هوى الوكلاء العامين".

ويتجلى تقييد الحريات التدريجي ذلك في جميع البلدان على شكل خاص لم يشر إليه هربرت سبنسر، وهو أن زيادة التدابير الاشتراعية المقيدة للحريات باطراد تؤدي إلى زيادة عدد الموظفين المفوض إليهم أمر تطبيقها وإلى زيادة سلطان هؤلاء الموظفين ونفوذهم، وهكذا يميل هؤلاء الموظفون إلى أن يكونوا سادة البلدان المتمدنة الحقيقيين، ويتفاقم سلطان الموظفين بما يعتور الحكومات من تبديل مستمر، والطائفة الإدارية، وهي تتفلت من تلك التغييرات، تتصف بعدم المسؤولية وبعدم الشخصية وبالديمومة، والحق أنك لا تجد بين أنواع الاستبداد ما هو أثقل من الاستبداد الذي تجتمع فيه هذه الصفات الثلاث.

ويؤدي سن القوانين والأنظمة المقيدة للحريات باستمرار، والتي تحيط أدق شؤون الحياة بسياج من الشكليات البيزنطية، إلى تضييق النطاق الذي يستطيع أبناء الوطن أن يسيروا ضمنه، والأمم ترضى بأثقل العوائق كل يوم حينما تذهب ضحية الوهم القائل إن كثرة القوانين تجعل المساواة والحرية في مأمن.

والأمم لا تسلم بتلك العوائق من غير عقاب، فهي بعد أن تتعود احتمال كل نير لم تعتم أن تبحث عن الانيار فتفقد بذلك كل مبادرة وكل نشاط،

وتغدو بذلك ظلالًا فارغة وآلات منفعلة غير فاعلة، وتصير بذلك عاطلة من الإرادة والصلابة والقوة.

ولكن الإنسان إذا عاد لا يجد الحوافز في نفسه يبحث عنها في غيره، وأهل البلاد إذا ما زاد عدم اكتراثهم وعدم قدرتهم عظم شأن حكوماتهم بحكم الضرورة، وذلك لما يجب على هذه الحكومات إذ ذاك من انتحال ما أضاعه الأفراد من روح المبادرة والإقدام والعمل ولما تضطر إليه من فعل كل شيء وإدارة كل شيء وتوجيه كل شيء، وهنالك تصبح الدولة إلهًا قادرًا على كل شيء، بيد أن التجربة تدل على أن قدرة مثل هذا الإله لا تدوم ولا تكون قوية أبدًا.

ويظهر أن تقييد جميع الحريات التدريجي لدى بعض الأمم، مع وهم الأمم في تمتعها بها، ينشأ عن هرمها كما ينشأ عن أي نظام، وذلك التقي هو نذير الانحطاط الذي لم تسطع حضارة أن تتفلت منه حتى الآن.

وإذا ما نظر إلى الأمر من ناحية معارف الماضي ومن جهة العلائم التي تبدو من كل مكان وجد أن حضاراتنا الحديثة بلغت دور أقصى الهرم الذي يسبق الانحطاط، ويظهر أنه لابد لجميع الأمم من أن ترد مورد بعض التطورات ما دمنا نرى التاريخ يكرر مجراها في الغالب.

ومن السهل أن نبين بإيجاز وجوه تلك التطورات، وبتلخيصها نختم هذا الكتاب:

إذا ما رجعنا البصر إلى العناصر الكبيرة في تكوين عظمة الحضارات التي ظهرت قبل حضاراتنا ماذا نرى؟

نرى في فجر تلك الحضارات أخلاطًا من الناس قد جمعتهم مصادفات الهجرة والمغازي والفتوحات، ولم يكن ليجمع بين أولئك الناس المختلفين دمًا ولغةً واعتقادًا غير سلطة رئيس لا تكاد تكون معترفًا بها، وفي تلك الزمر المختلطة تجد ما في الجماعات من الصفات النفسية إلى أعلى حد، أي تجد فيها الارتباط الموقت والبطولة وضروب الضعف والاندفاع والعنف، ولا تجد فيها شيئًا ثابتًا، فهي أقوام من البرابرة.

ثم أتم الزمان عمله، فكان لوحدة البيئة ولتكرار التوالد وضرورة العيش المشترك تأثير بطيء، وتبدأ زمرة الزمر المتباينة تتمازج وتؤلف عرقًا، أي مجموعة ذات صفات ومشاعر مشتركة تثبتها الوراثة بالتدريج، وتغدو الجماعة أمة ويحين لهذه الأمة أن تخرج من طور الهمجية.

ومع ذلك لا تخرج الأمة من ذلك الطور إلا بنيلها مثلًا عاليًا بعد جهود طويلة واصطراعات مكررة ومالا يحصى من عود إلى بدء، وليست طبيعة المثل الأعلى بالذي يهم، فالمثل الأعلى يكفي لمنح أفراد العرق الذين هم في دور التكوين وحدة تامة من المشاعر والأفكار سواء أكان المثل الأعلى عبادة رومة أم قدرة أثينة أم نصر الله.

وهنالك قد تظهر حضارة جديدة مع نظمها ومعتقداتها وفنونها، وذلك بأن ينجذب العرق إلى خياله فينال بالتدريج كل ما يهب النور والقوة والعظمة، أجل، يصبح العرق جماعة في بعض الأوقات لا ريب، بيد أنه يوجد خلف الصفات المتقلبة في الجماعات ذلك الأساس المتين، أي روح العرق التي تحدد تقلبات الأمة وتنظم المصادفات.

والزمان بعد أن يتم عمله الإبداعي يبدأ عمله التخريبي الذي لا يتفلت منه الناس ولا الآلهة، وبيان الأمر أن الحضارة إذا بلغت درجة من العظمة والتعقد عادت لا تنمو، وهي إذا ما وقف نموها حكم عليها بالأفول السريع، فلم تعتم ساعة الهرم أن تدق.

وآية تلك الساعة هي ضعف المثل الأعلى الذي تستند إليه روح العرق، وكلما ذوي هذا المثل الأعلى أخذت الصروح الدينية والسياسية والاجتماعية ترتج.

والعرق إذا ما اضمحل مثله الأعلى بالتدريج خسر علة التحامه ووحدته وقوته شيئًا فشيئًا، والفرد قد ينمو شخصية وذكاء، غير أن هذا يكون في وقت يستبدل فيه بأثرة الورق المشتركة كبير تنمو في الأثرية الفردية مع انحطاط في الخلق ونقص في القدرة على العمل، ولا يعتم ما تتألف منه الأمة والوحدة والكتلة أن يصبح جمع أفراد غير ملتحم فتمسكه التقاليد والنظم إمساكًا مصنوع لزمن قليل، والناس متي فرقت بينهم مصالحهم

ورغباتهم فغدوا عاجزين عن حكم أنفسهم بأنفسهم بحثوا عمن يديرهم في أدق أعمالهم فتمارس الدولة إذ ذاك نفوذها المهم.

والعرق إذا فقد مثله الأعلى القديم فقد روحه أيضًا، فعاد نقعًا من الأفراد ورجع إلى ما كان عليه في بدء أمره، أي صار جماعة، وتجلت فيه جميع الصفات الموقتة التي لا ثبات لها ولا مستقبل، وهنالك تصبح الحضارة عاطلة من أي استقرار وتقع تحت رحمة جميع المصادفات، وترى العامة ملكة الناس وترى البرابرة يتقدمون، أجل، قد تبدو الحضارة ساطعة لما تبصر من محافظتها على المظهر الخارجي الذي هو وليد ماض طويل، بيد أن هذا بناء نخر لا يدعمه شيء فسينهار عند أول عاصفة.

فانتقال من الهمجية إلى الحضارة سعيًا وراء خيال، ثم هبوط فموت عند خسران هذا الخيال لسلطانه، ذلك هو دور حياة الأمم.

محتويات الكتاب

الباب الأول روح الجماعات 4

الفصل الأول الخصائص العامة للجماعات..... 5

الفصل الثاني مشاعر الجماعات وأخلاقها..... 16

الفصل الثالث أفكار الجماعات وتعقلاتها وخيالها 40

الفصل الرابع الأصبغة الدينية التي تصطبغ بها عقائد الجماعات 51

الباب الثاني آراء الجماعات ومعتقداتها 58

الفصل الأول العوامل البعيدة في معتقدات الجماعات وآرائها..... 59

الفصل الثاني العوامل القريبة في آراء الجماعات..... 79

الفصل الثالث زعماء الجماعات وطرقهم في الإقناع..... 94

الفصل الرابع جدود تقلب معتقدات الجماعة وآرائها..... 116

الباب الثالث تقسيم أنواع الجماعات ووصفها 130

الفصل الأول تقسيم الجماعات 131

الفصل الثاني الجماعات الجارمة 136

الفصل الثالث محلفو محكمة الجنايات 141

الفصل الرابع الجماعات الانتخابية 149

الفصل الخامس المجالس البرلمانية 160

محتويات الكتاب 182

غوستاف لوبن
سيكولوجية الجماهير
ترجمة: عادل زعيتر
الطبعة الأولى
1445 هـ 2024 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.